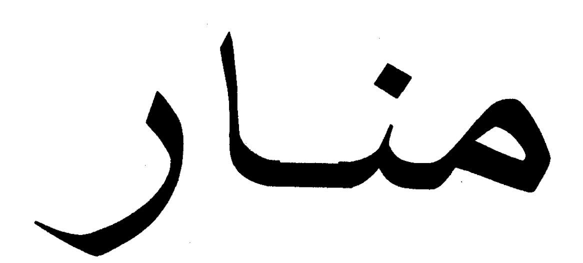
محمد كمال محمد



رواية

وقصص قصيرة

منـــــار

حين أسندت إلىّ المهمة ، كنت قد فرغت لتوى من مهمة أخرى فى اطار تخصصى الكهربى ، بقرية مجاورة لمدينة دمياط .. أبلغت بأنهم سيوكلون إلى ادارة مشروعها هناك . ليستقر بى الحال فى القرية التى لاتبعد عن بلدتى غير بضعة كيلو مترات ..

قال معتز الصديق المرافق فى العمل ، ان المشتغل فى الكهرباء تتهدده فى كل الأحوال اخطار الموت ، ما لم يكن يقظا فى العمل ..

قلت معلقا :

- انا شخصيا أمارس العمل مشحون بالخوف والقلق ..

قال معتز مداعبا ، ماكدت تنتهى من مشروع أولاد حمام حتى تلقفوك لعمل جديد .. ستنال من ورائه الكثير !

أردف :

- انك سعيد الحظ يا صاحبى .. لكن الأمر فى الأساس كفاءتك واجتهادك ..

مبتسما قلت :

- تبالغ دائماً ..

أردفت :

- لكن العمل الجديد سيحتاج لانجازه الإقامة فى بورسعيد فترة طويلة..

- وماذا فى ذلك .. نحن فى فصل الخريف .. ويمكننا الاستمتاع بالسكن فى كبينة على الشاطئ..

- بسرعة يشطح خيالك !

استأنف يقول :

- هناك السمان الذى يجئ فى الخريف .. لحمه لذيذ..

استدرك قائلاً :

- نسيت أنك نباتى !

* * *

بدأنا الاشتغال فى المهمة الجديدة التى استغرقت فترة طويلة فى بورسعيد .. بتركيب مكثفات بالشبكات الكهربائية لعلاج تذبذبات التيار .. والتخلص من القدرة غير الفعالة بالشبكات وتقليل نسبة الفقد فى الطاقة ، لتأمين واستقرار التيار الكهربائى .. ورفع كفاءة التغذية الكهربية والقضاء على الأعطال..

* * *

اقلتنا السيارة التى قدمت الينا من دمياط ، عائدين فى ساعة الغروب بعد فراغنا من العمل فى بورسعيد ..

كان المطر يتساقط رذاذا فى البداية ، ثم انهمر بشدة .. والطريق الواقعة بين البحر وبحيرة المنزلة زلقة مظلمة .. وعجلات السيارة اليمنى تلامس مياه البحر ..

قلت محذرا السائق :

- لاتسرع .. تمهل ..

عارضنى معتز :

- لكنى اريد اللحاق بقاطر الثامنة من دمياط .. للسفر إلى المنصورة.

قلت مداعبا :

- هل هناك حبيبة أوحشتك !

- ياليت !

قلت :

- لماذا لاتقضى الليلة معى فى عزبة البرج .. وتسافر فى الصباح ؟

- طبعا انت مطمئن إلى ان سفرك بهذه السيارة لن يطول .. لقرب بلدتك .. اما أنا فأواصل السفر إلى دمياط..

عند قرية الديبة توقفت السيارة فجأة .. والدنيا ظلام .. والريح تدّوم من ناحية البحر ..

هبط السائق وكشف غطاء السيارة ..

طال الوقت ونحن ننتظر فى قلق ..

عاد السائق بفوطة صفراء يجفف يديه المبتلتين بماء المطر :

- لافائدة ! .. سنبيت هنا حتى الصباح ..

هتف معتز فى انزعاج ..

- ماذا تقول ! .. نبيت هنا ! .. كيف !

قال السائق فى أسف :

- لابد من احضار ميكانيكى .. وهذا لن يكون الافى الصباح باتصال تليفونى لدمياط..

زمجر معتز :

- غير معقول ! .. وأين ستجد هذا التليفون ! هل فى هذا المكان تليفون !

قال السائق :

- سأركب فى الصباح سيارة أجرة قادمة من بورسعيد واتصل من

عزبة البرج ..

كنت صامتا طوال الوقت اخفى ضيقى .. بينما دلف السائق داخل السيارة وجلس فى مقعده خلف عجلة القيادة.

دمدم معتز حانقا :

- يرسلون إلينا سيارة مستهلكة !

ادار السائق رأسه للخلف مخاطبا معتز :

- حاولت أن ..

قاطعه صائحا :

- لاتتكلم فى ليلتك السوداء هذه !

قلت لائما :

- ما ذنبه !

حنى السائق رأسه وسكت ..

عاد معتز يزمجر ساخطا :

- هل سنقضى الليل داخل سيارة فى هذا المكان !

قلت :

- لامفر !

بعد قليل قلت مبتسما لأخفف من وقع الموقف :

- اشتقت الى صياح ديك جارنا فى الصباح !

قال معتز مغيظا:

- ماذا ؟! .. أهذا وقت الكلام عن ديك !

استرسلت غير عابئ :

- تعودت على صياحه ..

اشاح معتز بيده :

ـ أوه !

ـ اخشى ان يذبحه صاحبه ! .. أنا لا أحتمل رؤية ديك يذبح !

ظل معتز صامتا للحظات خرج بعدها عن صمته ليقول بلهجة مغايرة:

ـ هل تسكنك روح « المعرى» !

ـ كيف ؟

ـ أمسك بديك مذبوح وقال فى ألم : « استضعفوك فذبحوك !

ـ معه الحق !

ـ كان مخادعا ! .. يحب اكل اللحم .. لشدة فقره كان يوهم الناس انه ليس من آكلى اللحوم .. لرأفته بالطير والحيوان !

كنت مستسلما للموقف .. أرى انها ضرورة قهرية تحبسنا فى الظلام داخل سيارة صغيرة .. تحت المطر وعويل الريح ..

لم نر فى الظلام باب البيت الواطئ على يسارنا فى الجانب المقابل المحاذى لبحيرة المنزلة يفتح .. واحدهم يقترب من السيارة متلفعا بعباءة سوداء ويغطى راسه بمنشفة ليتقى رخات المطر ..

لمحه معتز فهمهم فى خوف :

ـ ما هذا ؟! قاطع طريق ؟!

لم يكد يتم عبارتة حتى رأينا القادم ينحنى على باب السيارة :

ـ تفضلوا ..

سأل معتز بصوت عال :

ـ الي اين ؟

لم نسمع للرجل صوتا .. فيما ظل يشير الينا بالنزول من السيارة..

قبالتنا كان باب بيت صغير ذو طابق واحد مفتوح .. يبين من داخله ضوء خافت .. رأينا مصدره حين دخلنا فى طرقة طويلة .. لمبة الجاز الموضوعة فى كوة صغيرة فى حائط مقابل ..

ليس سوى أريكة خشبية مفروشة بالحصير ، فوقها بطانية قديمة بدا ان صاحب البيت طرحها لتوه عن جسده ليخرج إلينا .. فهل بلغ سمعه أصواتنا من داخل السيارة رغم سقوط المطر ؟

فرش لنا الرجل كيبا كبيرا على أرض الحجرة .. وجاء بوسادة ولحاف قديم :

- معذرة .. مكان على قد الحال . يمكنكم قضاء الليلة فيه .. على راحتكم ..

خرج وأغلق خلفه الباب .. تبادلنا النظرات صامتين ..

ظللنا - معتز وأنا - يقظين .. بينما كان السائق نائما يعلو شخيره..

مضى معتز يثرثر كعادته :

- ذهبت ذات يوم الى بورسعيد عقب العدوان الثلاثى .. ركبت سيارة أجرة مستهلكة من دمياط .. شحنها السائق بعدد من الركاب جلس أحدهم على ركبتى طوال الطريق .. توقفت بنا السيارة عند كوبرى الجميل الذى ضربه الإسرائيليون اثناء العدوان ليعوقوا الوصول إلى المدينة .. أخذ رجلان مفتولى العضلات حافيان يحملاننا كالأطفال واحدا بعد آخر ويعبران بنا المجرى المائى الموصل بين البحر والبحيرة .. ويلقيان بنا فى الجانب الآخر لنعاود ركوب سيارة أجرة إلى قلب المدينة ..

الطريف أن أحد ركاب السيارة الأولى رفض ان يحمل أحد الرجلين زوجته ليعبر بها .. لم يتصور أن يلتصق جسد امرأته بصدر الرجل أثناء

العبور .. وآثرأن يعودا بالسيارة التى أقلتهما من دمياط ..
فجأة راح معتز يقهقه بصوت عال .. مما أثار استيائى :
- اخفض صوتك .. نحن غرباء فى البيت ..
قال :
- اضحك لأن هذه الواقعة غير حقيقية ! .. فلم يكن فى السيارة نساء على الإطلاق .. إنما هو مجرد تخيل لما قد يحدث اذا كان هناك امرأة بالفعل ! لكن اتعرف ؟ .. النساء المسافرات إلى بورسعيد من دمياط يفضلن ركوب المركب المعدة لهذا الغرض من قرية غيط النصارى حتى مدينة المطرية .. ويواصلن السفر فى مركب اخرى من هناك .. يقضين ثلثى النهار فى هذ المشوار ...
قلت :
- اهذه حقيقة أم خيال آخر ؟ .. خياليون انتم يا أبناء المنصورة !
- اكثر منك ؟! انت الذى تروح وتجئ حاملا فى جيبك الروايات الرومانسية ..
تنهدت :
- الخيال نعمة .. يخفف حدة اضطرابات القلق والمخاوف الإجتماعية والتمركز حول الذات .. يحمى الانسان من المهالك النفسية !
عندما شهد معتز خيوط الفجر تتلصص من فروج خصاص النافذة الواطئة نهض قائلا :
- لنخرج الآن .
قلت مبتسما :
- كانك فى سجن .. تود الهروب منه ..

قال فى نفاد صبر :

- كفى ! .. اريد أن اشم هواء الصباح النقى على الشاطئ !

تحرجت ان نوقظ أهل البيت فى هذا الوقت .. فاستمهلت معتز ليصبر قليلا ..

حين سمعنا حركة خارج الحجرة صفقت بيدى فى رفق .. سمعنا نقرة خفيفة على الباب قبل ان ينفتح مواربا ويطل وجه صاحب البيت فى بشاشة

لحظت عوار عينه ..

قلت له :

- عفوا . أقلقناكم ..

ابتسم وقال :

- تفضلوا للافطار ..

اعتذرنا ثلاثتنا عن تناول أى طعام ..

عندما رأى الرجل اصرارنا قال :

- على الأقل تشربون الشاى ..

نادى من مكانه :

- منار .. الشاى يا ابنتى ..

التفت الينا :

- اعدته لكم ابنتى ..

خلال دقائق كانت الفتاة تطرق باب الحجرة فى أدب شديد وتدخل حاملة صينية صفراء مستديرة عليها اكواب الشاى ..

راعنى جمالها .. اقتحمنى كالضوء المبهر يعشى العينين على غرة!..

حملق معتز نحو الفتاة مشدداها مسحورا .. والسائق أيضا .. لكنه كان فاغر الفم كالأبله ..

في الطرقة الممتدة لحظنا الاكياب المفروشة .. فهمنا انها كانت فراش الرجل اثناء الليل لينزل لنا عن حجرته..

عرفنا اسمه : طرابيه .. صياد فقير من قرية الدبية الصغيرة..

تلكأ معتز بينما نعبر الطرقة صوب الباب الخارجى .. يدير رأسه ناظراً بجانب عينيه .. لعله يرى الفتاة !

وقفت على الشاطئ أتأمل البحر المتناهى الاتساع .. فى انتظار الميكانيكى القادم من دمياط لاصلاح عطل السيارة .. الأنسام تشتد والأمواج ترتفع عاليا وسط دوامة من الزبد مائجة .. تعلو كعمود بالغ الطول وتهوى مع زبدها فى قلب الأمواج الهابطة .. منكسرة على نفسها تندك وتنساب وتتشتت فى كل اتجاه ..

وكنت اتخيل شيئا يصبغ الأمواج بخضرة داكنة ..

كان معتز من وقت لآخر يقف الى جوارى .. ومن وقت لآخر كان يدير رأسه نحو البيت الصغير ويهزها فى أسف :

- جوهرة فى غير مكانها !

كان يعنى فتاة البيت .. يتساءل :

- اى حياة تحياها هذه الفاتنة مع ابيها لوحدها دون ..

قاطعته فى ضيق :

- ماذا يهمك بشأن حياة انسانة غريبة عنا ؟!

كانت صورة الفتاة تتراءى لي صاعدة مع حركة الموج تكاد تمسك السماء !

وجدتنى والسيارة تتحرك بنا بعد اصلاحها اترصد باب البيت الصغير.. لعله ينفتح عن الوجه الجميل مطلا علينا ببهائه وفتنته !

كان معتز الجالس فى جوارى مشغولا بالتهام قطع الشيكولاتة السوداء الخالصة التى جلبها من بورسعيد .. يقول ان الشيكولاته تخفض ضغط الدم والاكتئاب !

* * *

ذات صباح بينما أقف فى موقف سيارات الأتوبيس فى عزبة البرج لأتوجه الى دمياط .. ومنها بالأتوبيس أيضاً إلى أولاد حمام .. قدمت سيارة اجرة من بورسعيد نزل منها أحد ركابها .. سمعته يقول للواقفين أن ثمة حريق كبير شب فى قرية الديبة .. وهناك بعض الضحايا..

خايلنى للتو البيت الصغير هناك .. اعترانى احساس بالانزعاج يخالطه الإشفاق !

لم يستغرق الأمر أكثر من دقائق .. بعدها لمحت أحد اقاربى يقبل من داخل البلدة راكبا دراجته البخارية .. أوقفته وطلبت إليه أن يقلنى إلى الديبة .. لم يظهر الرجل تمنعا برغم انه كان فى طريقة إلى قرية الخياطة لشأن من شئونة ..

قابلنا فى الطريق سيارة الاسعاف عائدة من القرية .. احسست بالقلق!

قرب البيت الصغير عاد الرجل وتركنى أقف مترددا أمام الباب المغلق ..

أدركت ان الحريق لم يصل الى البيت .. وانتابنى شعور بالاطمئنان !

من الحين والآخر كانت تمر امامى سيارات الأجرة القديمة المتهالكة ، المرخص لها بخط السير بين بورسعيد ودمياط .. فليس بالامكان تسيير

سيارات بحالة أفضل لتتعرض للتلف بسير عجلاتها فى مياه البحر المالحة طوال الطريق الضيقة غير المرصوفة ..

تناوبتنى مشاعر شتى .. كنت خلالها مدفوعا برغبة خفية - عجبت لها - فى دخول البيت الصغير ..

حين تحركت صوب الباب لأطرقه ، انفتح فجأة .. وبرز أمامى طرابيه يحمل شبكة الصيد ..

حدق نحوى بعينه الواحدة . وبان فى ملامحه انه يحاول أن يتذكر أين رأى الشخص الماثل أمامه ..

بينما هممت أن أحييه بادرنى مرحبا :

- اهلا وسهلا .. اليس حضرتك الذى ..

ابتسمت حين توقف عن اكمال عبارته :

- نعم انا هو ..

عاد يردد :

- مرحبا .. هل هناك خدمة يمكن أن أؤديها لك ؟

قالها بلهجة تنم عن طهارة نفسه !

شكرته وقلت :

- سمعت عن الحريق .. جئت لأطمئن عليكم .

بدا الرجل دهشا :

- أهذا معقول ؟! .. مجرد ليلة شرفت فيها بيتى .. تجعلك تكلف نفسك وتجئ الى هنا للسؤال عنا !

قلت :

- لا انسى كرم الضيافة ..

القى بالشبكة على الأرض جنب الباب .. هتف مرحبا :

- تفضل .. تفضل نشرب الشاى ..

جلسنا فى الطرقة الضيقة الطويلة .. قال طرابيه :

- الحريق اطفأناه والحمد لله .. لولا ماء البحيرة خلف البيوت لاحترقت بيوت كثيرة ..

اضاف :

- لجأنا الى سائقى السيارات القادمة من بورسعيد لنبلغ المطافئ .. فلم تجئ إلا بعد وقت طويل ...

جاءت منار بكوبى الشاى .. رأيت الجمال مرة أخرى .

حيتنى بابتسامة واستدارت لتجلس فى آخر الطرقة على حجر اسود مستطيل من النوع الذى يستخدم فى حواف الأرصفة .. اسندت ذقنها بظهر يدها .. تنظر نحونا ساكنة بينما كان طرابيه يقول :

- اصاب الحريق امرأة أرملة واطفالها الثلاثة .. حملتهم سيارة الاسعاف الى مستشفى دمياط ..

كنت اختلس النظرات نحو منار مفتونا ..

* * *

تكرر ذهابى للبيت الصغير .. مرة .. ومرتان فى الأسبوع دون أن أسأل نفسى لماذا !

كان ترحيب صاحب البيت وابنته بى وبساطة تعاملها لى يجذبنى لزيارتهما

يقول طرابيه فى طيبة ومودة :

- تعودنا أن نراك .. لا تغب عنا !

عند انتهاء نوبتى بعد الظهر فى أولاد حمام .. اسرع الى الطريق

الزراعى لاستقل الأتوبيس حتى دمياط .. وأستقل آخر الى عزبة البرج ومن هناك ألجأ الى قريبى صاحب الدراجة البخارية ليقلنى الى الديبة ..

* * *

قلت لمنار :

ـ سأعلمك القراءة والكتابة ..

نظرت إلى فى دهشة وقالت :

ـ أتعلم القراءة والكتابة ؟! .. لكن .. كيف عرفت انى لا أقرأ ولا اكتب ؟

اشرت الى لوحة كرتونية معلقة على حائط الطرقة .. قلت :

ـ هذه اللوحة .. أراها مقلوبة منذ دخلت بيتكم ..

التفتت منار نحو اللوحة .. عبرت وجهها سحابة حزن :

ـ جاء بها أخى من طنطا .. يوم زار السيد البدوى .. اعجبته ألوانها وخطها الجميل ..

خطوت نحو اللوحة أقول :

ـ هل تسمحين .. سأعد لها ..

عندما تناولت اللوحة فى يدى اقلبها لأعيد تعليقها قالت منار :

ـ هل تقرأها لى !

قلت :

ـ انها حكمة معروفة لعلى بن ابى طالب ..

ـ ماذا تقول ؟

ـ « فقد الأحبة غربة »

عادت سحابة الحزن تظلل وجهها .. قالت :

- علقها أخى قبل أن يموت بيوم واحد !

- هل كان يجهل القراء والكتابة ؟

- لم يفكر ابى فى ادخاله المدرسة .. ولا انا دخلتها ..

قلت فى نفسى :

- جريمة !

* * *

جئت لمنار بأقلام الرصاص والكراسات ..

كنت انفق ساعات بطولها منفردا بها على عتبة مدخل البيت .. هى تجلس بجوارى على الحجر المستطيل الذى نقلناه قرب الباب بينما أجلس على كيب فرشته لى.. فيما كان طرابيه ينشغل أمام باب البيت فى رتق الخروق فى شبكة الصيد ..

كنت القنها القراءة والكتابة بتهجي الحروف .. وأمسك بيدها لكى اعلمها كيف تخطها .. وأمسك أصابعها لأقود قلمها شيئاً ما .. عندما يمتد الوقت فى الدرس الجدى ، كنت ألحظ كيف تنثنى حاجباها الجميلان سأما وضيقا .. وكيف تزم شفتيها المثقلتين بما يشبه النعاس .. وترفع رأسها المحنى على الكراسة لتقول عيناها : ألا يكفى هذا !

* * *

لم يفتنى اثناء الدروس اليومية تبرم منار فى كثير من الأحيان وتضجرها الذى تحاول اخفاءه ، ضيقا بالقراءة والكتابة . مما جعلنى لاأؤمل كثيرا فى تكملة الشوط معها ..

لكن ذلك لم يثنينى عما اعتزمت تحقيقه .. مستعينا بالاغراء مرة وبتصنع الغضب مرة أخرى ..

وزدت على ذلك بالتلميح بأني سأنفض يدى منها وأتركها لطبيعتها الرافضة .. وسأنقطع عن زياراتى لبيتهم ..

قالت تحاورنى :

ـ هل تجئ عندنا فقط لتعليمى القراءة والكتابة ؟

قلت :

ـ ليس بالضبط .. لأني أرتاح لوجودى بينكم .. لكنى سأسعد كثيرا لو رأيتك تقراين وتكتبين ..

أردفت :

ـ اننى أدخرلك مفاجآت سترضيك .. بعد أن تثبتى لى قدرتك على استكمال المشوار .

كنت أقصد اننى سوف أواليها بالمجلات المصورة الجذابة .. التى لم تر بالطبع مثلها .. والتى ستجلب بالتأكيد السرور الى قلبها .. ثم الكتب والروايات التى تغرى بالمطالعة .. لكى انقل اليها احساسا بقيمة انسانيتها ..

قالت مداعبة :

ـ تريد ان تقول انك ستكافئنى .. على كل حال لن أسالك ما نوع تلك المكافآت .. سأدع ذلك لوقته !

استأنفت معها مهمتى فى حماس اكبر ..

تخيلتنى أسقيها المعرفة المرتقبة فى قطعة حلوى تلتذ بطعمها وترغب فى المزيد منها !

كنت استأنس بوجودها طوال وقت التعلم ..

وكنت أجئ بعد الظهر من أولاد حمام إلى بلدتى عزبة البرج ..

وأواصل الطريق الى الديبة .. مستخدما الدراجة البخارية العتيقة التى يقودها قريبى ويرد فنى خلفه .. وطوال الطريق تعلو فرقعات محركها وتتوقف مرة بعد أخرى دون أن أعرف السبب !

على مبعدة من البيت الصغير كنت اطلب من قريبى التوقف لأنزل لكى لايفطن الى أنى أقصد ذلك البيت بعينه ..

حتى معتز صديقى كنت أخفى عنه زياراتى للبيت الصغير ..

كنت أحس بغبطة للذهاب إلى هناك . أجدنى قد تعلقت بساكنى البيت تعلق الأطفال !

وكنت باحساسى تجاه منار وأبوها لا أجد نفسى غريبا بينهما وكانت الأوقات معهما تروقنى .. اعيش فى حالة نشوة متصلة لاتفارقنى الا حينما اغادر البيت الصغير !

كنت اصد فكرة الابتعاد عنهما لأضيف لعملى فى أولاد حمام ساعات أخرى .. ويطيب لى أن أتصور الايكون لتلك العلاقة الطيبة نهاية أبدا !

فى كثير من الأحيان كان ثمة صراع يتولد فى نفسى بين واجبى التعليمى الذى اخترت أداءه بمحض ارادتى .. وبوازع من مشاعرى تجاه منار لمساعدتها لتعايش واقع الحياة وتصد عن نفسها تياراتها العاصفة.. وتستمتع بكل ما هو جميل ونبيل .. وبين خشيتى احتدام العاطفة وتحولها الى حب لا ادرى كيف سيكون مساره فى بداياته وحتى نهاياته !.. وتشبثى بوضع « المعلم » وحده فحسب .. دون العروج الى وضع آخر نحو التلميذة !..

كنت قلقاً أسال نفسى : أحقا انى مهيأ لهذا الدور .. قادر علي أداء

المهمة دون ضعف عاطفى ؟

وبات فى داخلى أن النكوص عن تكملة الشوط هو إدبار وتخاذل لايليقان بى !

من جانب آخر كنت أقدر أن تلك الزيارات بهذه الكثرة ، ربما تثير شكوك طرابيه بأن المقصود بها منار ..

افكر : لو كان الأمر ، في تقديرى ، كذلك . فهل ترى الرجل يتغاضى - فى بيئة ريفية محافظة - متطلعا بالأمل طامحا إلى زواجى بابنته؟

فى يوم جمعة ساعة الظهيرة بينما اقترب من البيت الصغير .. كان الباب مغلقا .. فيما كان هناك دخان يتصاعد فوق السطح ..

عند الباب توقفت مترددا لاتمتد يدى لطرقه ..

لا ادرى كيف انتبهت منار لوقفتى .. فقد أطلت من فوق السطح مشيرة بيدها الصغيرة أن انتظر حتى تفتح لى ..

قالت حين فتحت الباب وابتسامتها تضئ وجهها الصبوح :

- أخبز الخبيز .. اجلس حتى انتهى . لم يبق غير القليل من الأرغفة..

لم تغب عنى كثيرا .. وكنت أعرف أنها كانت تنتظر أمام الفرن انضاج الخبز ..

نزلت فى يدها رغيفين :

- ستأكل الخبز الساخن .. الغموس فول دمسته فى الفرن..

و فرشت أمامى الكيب النظيف .. واستمهلتنى لتصعد الى السطح قائلة:

ـ سأحضر « زراوية » الفول ..
نزلت تحمل قدرة صغيرة من الفخار الاسود مغطاة بخرق قديمة ..
ملأت لى صحنا من الفول بالزيت :
ـ بالهناء والشفاء ..
أضافت مبتسمة :
ـ هل تحب اكل البصل الناشف مع الفول ؟
ـ لا .. اشكرك ..
كنت قد تناولت افطارى .. لكنى لم استطيع مقاومة الرغبة فى تناول ما قدمته لى منار ..
كان الطعام شهيا .. مثل كل طعام تقدمه لى !
قالت وهى تجلس بعيدا على الحجر لاتنظر نحوى كى لا أتحرج :
ـ يوم الخبيز إما التدميس أو البصارة !
سألتها هل لوحدها تعجن وتقرص الأرغفة وتشعل الفرن وتخبز ؟
ادارت وجهها نحوى وأومأت مبتسمة :
ـ هل ترى فى البيت أحدا غيرى !
اثنيت علي قدراتها .. تضرج وجهها بحمرة خفيفة ..
أتامل كعادتى نحافتها وجسمها الرقيق . بينما قالت :
ـ تعلمت من أمى ..
ـ منذ متى ماتت ؟
ـ من خمس سنوات
قلت :
ـ لم اشهد أحدا يزوركم ..

قالت :

ـ كان أقاربنا فى السنانية والشيخ ضرغام .. يجيئون لزيارتنا قبل أن تموت أمى .. آخر مرة يوم جاؤوا للعزاء ولم نعد نرى احدا .. غير أحدهم الذى جاء يوم العيد الكبير يزورنا .. ويطلب يدي ..

فى سرعة وجدتنى أسالى :

ـ هل وافقت ؟

ـ كلا ..فكيف اتزوج وأترك أبى دون أحد يرعاه ..

ـ لم يكن لديك مانع اذن بالزواج ممن تقدم اليك !

صمتت لحظة وقالت :

ـ فى الحقيقة لا أدرى .. فأنا لم أعرف هذا الشاب من قبل .. ولم أتكلم معه .

فيما صمت لا أتكلم أضافت :

ـ يشتغل نجار سواقى فى بلدتهم السنانية . وأبوه شيخ الجامع .. وله ارض زراعية هناك ..

ـ تعرفين عنه الكثير !

ـ عرفت من أبى .

صمت .. فيما تعجبت كيف أعطيت لنفسى الحق فى محاصرتها بالاسئلة المحملة بالغيرة هكذا .. ما الذى دفعنى الى ذلك ؟!

ترى هل استشعرت منار هذه الغيرة ؟!

هل آذيت مشاعرها بلهجتى التى لم تخل من التهكم الخفى ؟

انتابنى ضيق شديد لم يستمر طويلا .. لقدوم طرابيه خارجا من صلاة الجمعة .. يطرح على كتفيه العباءة البالية ..

سأل منار بمجرد أن جلس ، هل طبخت البصارة ؟

قالت :

- سنأكل المدمس .. البصارة فى الخبزة القادمة !

قال :

- كنت اريد أن يذوقها السيد بدر من يديك !

قالت منار مبتسمة وهي تنظر نحوى :

- لن يفوتني ذلك !

لم املك الا أن اتجنب نظرتها !

* * *

كان والدى يعمل مأمورا لفنار عزبة البرج ، القائم عند ملتقى النهر بالبحر .. وكان مالكا لمركب تجارى كبير يبحر فى رحلات مستمرة بين عزبة البرج واليونان ..

كانت المركب تعود من رحلتها موسوقة بالبضائع .. احمل الى البيت الصغير بعضا منها : اللوز والجوز والبندق والزيتون الاسود وزيت الزيتون والزبيب..

كان طرابيه يتقبل هديتى بعبارات الشكر والامتنان .. يشفعها فى كل مرة بقوله :

- لكن هذا كثير !

يلتفت الى منار التى تقف ترقب الموقف متوردة الوجنتين بالخجل ويقول : انظرى ماذا جاء به السيد بدر ..

كان دائما يسبق اسمى بلقب السيد ..

* * *

حين كنت ارى منار بين الحين والآخر تنهمك فى رتق عباءة أبيها .. جالسة على الحجر الصلد .. كلفت معتزا بشراء عباءة مناسبة من مدينة المنصورة التى يذهب اليها كل اسبوع .. وقلت له انهم لايبيعون - لا ادرى لماذا - العباءات فى دمياط ..

واسعدنى فرحة طرابية بالعباءة .. هتف :

- الآن لا أخشى البرد !

قالت منار فى تأثر :

- لماذا تكلف نفسك هكذا !

كنت اريد أن أريحها من رتق العباءة المهترئة ليلا ونهار

تمتمت بعبارات الشكر .. وبان فى عينيها العرفان ..

***

كان قلبى يسعد بجلسة منار أمامى تتلقى تعليمى لها فى تلك الاوقات التى كانت تطول مستغرقين - هى وانا - فى التعليم ..

يزيدنى غبطة سذاجتها وطهارتها .. ووجهها الجميل المبتسم ..

***

عندما جاء صيف يونيو كانت الكارثة فى انتظارنا !

فى الشرفة الواسعة للفندق الذى دعانى صاحبه زميل الدراسة الثانوية ، لقضاء النهار فى ضيافته ..

كنا فى بدايات يونيو .. وكانت الفنادق تبدأ فتح أبوابها لمصطافى رأس البر .. وكانت الشرفة قرب شاطئ البحر فى منطقة اللسان ..

كنت مسترخيا على الكرسى الوثير أحدق عبر السماء .. تهيم عيناي فى السحابات البيضاء .. الفضاء تقتحمه طيور النورس فى

دورانها الحلزونى قرب سطح الماء .

جاء صاحب الفندق بالجلباب الأبيض والقبقاب .. ووجهه يقطر بماء الوضوء .. صلى فى جوارى ونهض يدمدم .. تري من سيصطاف بعد ، اذا تحققت النبوءة التي قرأها للعلماء ، بتعرض مواسم الصيف فى السنوات القادمة لموجات باردة ؟!..

عندها تعكر الفضاء بطائرات تنخفض لتمرق فى لمحة قرب الشاطئ صوب الجنوب ..

بدا الجو متوترا ..

انطلقت من راديو الفندق صرخات متشنجة تحمل انباء الحرب ..

فى الشوارع الرملية يركض الناس هنا وهناك..

بين صفوف الأعشش وفى شرفاتها وقفت النسوة يلوحن لبعضهن..

« اسقطنا عشر طائرات .. عشرون .. ثلاثون .. سبعون .. نتقدم باكتساح .. بعد قليل سنلتقى فى تل ابيب ».

تناثر فى الشوارع نفر من العمال الذين يقيمون الأعشش بالبوص والأكياب .. والبنائين الذين لم يفرغوا بعد من البناء فى نواح متفرقة الفرحة على الوجوه .. يشوبها ظلال الشك .. الهم الحماس البعض فصفقوا مهللين .. ودمعت العيون بساعة النصر ..

امتزج الترقب بالدهشة تدوّم فى الأذهان ..

بعد ساعات تساءلنا بذهول الصدمة :

- ما هذا الذى حدث ؟

خفت شوارع المصيف من الناس .. تعجبت كيف امكن الرحيل فى هذا الوقت القصير ؟

تبادلت مع صاحبى نظرة أسيفة آسية وأنا اغادر ..

ارتطمت قدمى بمجراف طفل مدفون فى الرمال . تخيلت البراءة الحلوة تلهو على الشاطئ بلباس البحر بالوانه المختلفة .. الشباب .. الجميلات الحالمات ..

كيف توقفت الحياة فجأة ؟

أمام الفندق كانت شجرة التمر حنة ساكنة .. والريح لاتحمل شذاها من ناحية البحر محملة برائحة المياه المالحة .. ونخلة البلدية الخالية من الجريد الذى استخدمه الفراش فى تسليك المجارير، ومازلنا فى بداية الموسم ، بدت كجثة منتصبة فى صحراء..

تأملت المصطافين المغادرين برغمهم ..الوجوه مكتئبة مغتمة متوترة.. لكنهم لم ينسوا ان يحملوا معهم اقراص المشبك !

عبرت النهر قرب الفنار وذهبت إلى أبى ..

كان منهارا يسألنى ذاهلا :

- لماذا انهزمنا ؟!

همهم فى يأس :

- ضعنا .. خربت البلد ..

ترامى الينا صوت فرقعات تجئ من ناحية طريق بورسعيد ..

هتف ابى فى انزعاج :

- تضرب طائراتهم منطقة الديبة .. لكن لماذا ! .. ماذا يريدون ؟

خلالهم الجو بعد ان قضوا على سلاحنا الجوى !

اسرعت فى لهفة متجها اسير على قدمى نحو البيت الصغير..

حينما اقتربت من هناك .. جاءت من خلفى فرقعات أقرب .. عرفت

أنهم يصوبون قذائفهم إلى طابية عرابى المواجهه للفنار ..

أى جنون ! أى عربدة ! .. الكلاب !

فى غضب وحنق اخذت العنهم وألعن آباءهم وأجدادهم !

من خلف البيت الصغير جاء طرابيه تحمل ملامحه الذعر ..

قال بمجرد أن رآنى :

- كنت فى البحيرة أصطاد ..

عندما وجدنى أقف عند باب البيت لا أدخله وأخاطب منار مطمئنا اياها .. امسك يدى قائلاً :

- تعال أريك أثر الضرب !

فى الجدار الخلفى للبيت كان هناك ثقوب الشظايا مستطيلة فى شرائح غائرة فى البناء..

دعانى لادخل معه البيت :

- تعال .. ربما نستطيع ان نشرب الشاى فى اطمئنان ! .. وقع الضرب فلم اكمل الصيد ..

ردد حانقا :

- يريدون قتلنا .. الإسرائيليون يريدون قتلنا .. يريدون قتل البلد كلها .. الخنازير !

استغرقنى الموقف متخيلا سقوط الضحايا ..

انتبهت لصوت طرابيه ينتهد ويقول فى أسى :

- ليت ام منار عاشت لنا .. لتهون علينا قسوة الحياة !

استطرد :

- ماتت فى المستشفى بمرض لم نعرفه ..

لست ادرى لماذا تذكر طرابيه فى تلك اللحظة ولده ..

مضى يحكى كيف مات ..

كان يساعده فى الصيد فى البحيرة .. نزل وحده فى ضحى يوم ليصطاد .. جدف بالقارب مسافة طويلة .. توقف بعدها قبالة مقام الشيخ المغربى الرابض على شاطئ البحر . اغراه سمك الكابوريا الوفير هناك .. ولأن الكابوريا تمزق الشبكة عند صيدها بها ، فقد نزل عاريا يصيدها بيديه .. ويلقى بها فى قاع القارب ..

فجأة سقط فى الماء دون صوت .. قضت عليه سمكة كابوريا متوحشة بعضة فى خصيتيه ..

أخفض طرابيه رأسه وصمت ..

بعد لحظات تكلم عن عينه التى ضاعت حين كان طفلا يلعب على شط البحيرة .. اخترق عينه غصن شجرة جاف .. لم تكترث أمه للأمر.. ظل السائل الساخن ينساب من العين طوال الليل .. قالوا له فيما بعد : لافائدة .. العين تلفت ..

ضمرت مع الزمن وماتت ..

عاد يخفض رأسه .. بدا يتوجع فى داخله .. وعاد يتكلم .. اجوس بخيالى فى معانى كلماته التى تدور حول الولد ، الذى جاؤوا به جسدا مسجى بعد ان كان املا وحلما.

احسسته واحدا من جرحى الحياة .. ينوء جسده الرقيق بأحمال ثقيلة.. تنهك الهموم روحه يتوجع فى داخله.. لاأسمع منه انين الشكوى.. ينتابني الألم اذلا أملك انتشاله ..

بلل ورق السيجارة بلسانه ولفها .. بقيت بين أصابعه دون أن

يشعلها ..

- كرهت البحيرة بعد موت ابنى أياما طويلة .. كرهت النزول فيها .. بدت لى متوحشة .. صماء لاتستجيب لرجاء انسان ان يعيش له أحباب!.. شيطان اسود ملعون .. حتى القارب الشئ الوحيد الذى أمتلكه ضاع واختفى بعد الأيام الطويلة التى غبتها عن البحيرة ..

أشعل سيجارته :

- الآن .. اكتفى بطرح الشبكة قرب الشط .، فلا تجلب لى غير القليل ..

وجدتنى أساله ان كان يستشعر الحرج بمجيئى الى بيته .. أويرى الزيارات المتكررة غير لائقة ؟

نظر الى بعينه فى ود :

- تقصد لوجود منار ؟ .. لا .. انى أثق فى طهارتك .. انسان مثلك لا أخشى منه على ابنتى .. لن يمسنى بسوء أبدا !

اطلت من عينه نظرة تقول : انك لاتنوى ان تصيبنى بجرح لن احتمله!

***

اصطحبت معتز لنذهب الى قرية عزبة اللحم المجاورة لدمياط .. هناك يقومون على شط النهر بصنع المراكب ..

قال معتز فى الطريق مستغربا :

- لمن هذا القارب الذى تريد شراؤه .. لم تقل لى !

قلت :

- هل تذكر الرجل صاحب البيت الصغير .. الذى استضافنا فى

الطريق ليلة تعطل السيارة ؟

- ابو البنت الجميلة التى لا انسى وجهها ؟

انتابنى الضيق لعبارته .. قلت باختصار بينما نقترب من النجارين المشغولون فى صناعتهم :

- انه صياد فقير كما تعلم .. سأشترى القارب وأهديه له ..

* * *

كان الرجل الذى اتفقت معه على صنع القارب مغاليا فى الثمن لم يثنه عن الرقم الذى حدده قولى له أن الرجل الذى ساقدم له القارب هدية فقير يستحق المساعدة ..

هز رأسه وبانت لحيته السوداء الطويلة التى تكاد تلامس صدره كأنها تتكلم بلسانه :

- هذا آخر ما عندى .. يمكنك ان تحاول مع نجار غيرى !

حدد لى موعد تسليم القارب ..

علق معتز ونحن عائدان قائلا :

- ظننت ان فى قلب الرجل رحمة .. تبين لى انه يملؤه بالحجارة .. ماهذه اللحية الضخمة !.. انه لوجزها ليتخلص منها ستزن سبعة أرطال لاتقل !

مضى الأسبوعان المتفق عليهما لتسليم القارب .. ولم يف الرجل بالموعد .. وأسبوع آخر تلاه رابع .. ومازال الرجل يسوف ويماطل ..

كنت ثائراً أقول لمعتز ، إن هذا الرجل اسوء شخص قابلته !

قال مهدئا :

- سأتولى الأمر معه ..

لم اكن أدرى ان معتز سيلجأ الى ضابط مباحث المركز الذى تتبعه

القرية .. للضغط على الرجل وانتزاع موعد نهائى منه بتسلمى القارب..

* * *

حملت القارب على عربة كارو يجرها حصان استاجرتها من دمياط..استقللت سيارة أجرة لأسبق العربة ، على أن أنتظرها عند قرية الديبة ...

غير أن حادث تصادم بين سيارة نقل وسيارة اجرة وقع عند قرية الخياطة .. وانشغال الشرطة وسيارة الإسعاف بالضحاياوالمصابين اغلق من اجله الطريق ساعات طويلة ..

لحقت بى عربة الكارو .. وتوقفت حتى فتح الطريق .. واضطررت اذ لا وسيلة أخرى أن أركب بجوار الحوذى تلك المسافة بين عزبة البرج وقرية الديبة .. بينما قبع مساعده فى بطن القارب ..

كان باب البيت الصغير مغلقا فاحسست بارتياح ..

انزلنا القارب الثقيل بصعوبة .. وجررناه حتى حاذى بطوله شط البحيرة ..

وعدت راكبا عربة الكارو حتى عزبة البرج ..

* * *

قبيل العصر كان طرابيه فى اغلب الأيام يصر على حملى فى قاربه ليقرب الطريق لى . يجدف فى همة لاتتناسب مع سنه بالبحيرة الهادئة.. التى لاتختلج صفحتها رغم الريح تأتى مباغتة من ناحيه البحر وتهدأ بنسمة واحدة .. وتبدو أمواهها الغامقة المغطاة بطبقة من القتامة نائمة ..

قرب طابية عرابى يميل طرابيه بالقارب للشط .. يشيعنى فى طيبة :
- مع السلامة ..

أهديت منار جهاز راديو ترانزستور .. ليبدد جو البيت الساكن .. ورأيت الفرحة فى عينيها ..

تضاحكنا وانا أقول لها :

- تتسلين ساعة مع عنزتك .. وساعة مع الراديو ..

قالت متسائلة :

- من أين عرفت ان فى بيتنا عنزة ؟

قلت :

- اسمع ثغاؤها يأتى من سطح البيت ..

كأن العنزة سمعتنا نتكلم عنها .. فقد ارتفع ثغاؤها ..

ابتسمت منار قائلة :

- تناديني لأحلبها !

نهضت فى خفة وصعدت الى السطح ..

جاءت بعد قليل تحمل لى كوزا من الصفيح ممتلئ حتى الحافة باللبن..

- اشرب اللبن الدافئ .

فى بهجة ملأتنى رفعت الكوز الى فمى .. غير أنها هتفت :

- انتظر !

ذهبت وعادت تحمل رغيفين وقطعة مستديرة فى هيئة قرص من جبن الضأن الذى تعده بيدها .. لأ أكل مع اللبن ..

كان الخبز طريا عرفت ان منار تغطيه فى مكانه بالخضرة ليحتفظ بطراوته ..

أحسست وأنا أتناول الطعام البسيط كأنى لم يكن لى غنى عنه.. ليسندنى . ويجدد حياة الجسد !

اكدت لنفسى : هو حقا كذلك .. لأن منار قدمته لى بيديها !

كنت ارى منار فى آخر الطرقة تحمل جرة صغيرة تميلها على ذراعها.. تغيب فى الداخل .. وأسمع انسكاب الماء فى اناء هناك .. قرب باب الحجرة الداخلية كانت ثمرة من القرع العسلى ملقاة جوار الحائط .. لفت نظري ضخامتها فلم احول عينى عنها بعد ما فرغت من الطعام..

قالت منار التى لحظت ذلك :

- جاء بها اخى من دمياط فى الصيف الماضى ..

فى نبرة آسية اضافت :

- كان لى أخ شاب ..

رفعت يدى اسكتها :

- قلت لى ذات مرة .. وقال لى ابوك !

سقطت اشعة الشمس من فتحة كبيرة فى السقف .. احسستها معتمة لحزن منار فى تلك اللحظة !

دخل طرابيه يعلق على كتفه سلة مجدولة من الخوص يطل منها سمك السيوف الطويل يلمع جلده لمعان الفضة ..

قال لمنار :

- سيتغدى معنا السيد بدر ..

خطفت منار السلة فى ابتهاج وغابت بها فى الداخل .. كأنما تخاف أن تسمعنى اعتذر !

بينما دخل طرابيه يغسل يديه من الرائحة الزفرة ، شممت رائحة القلى الشهية ..

* * *

عندما فتحت لمنار الراديو الصغير كان عبدالوهاب يغنى قصيدة «جبل التوباد»

انصتت منار قليلا والبسمة فى عينها . سألت فى سذاجة :

ـ لماذا يغنى عبدالوهاب عن هذا الجبل ؟! وما هو جبل التوباد هذا ؟

ابتسمت وقلت :

ـ يغنى شعر أحمد شوقى .. وهو شاعر العصر الحديث يفخر به المصريون والعرب .. وجبل التوباد هذا هو الذى شهد قصة غرام قيس بليلى منذ صباهما .. كان قيس حينما يشتد به الهيام بليلى التى حرموه منها .. يذهب الى هذا الجبل يعيش عنده ذكريات أيام الصبا هو وليلى ولعبهما عنده وانطلاقهما فى اللهو البرئ .. وتسابقهما فى العدو متضاحكين يعيشان الأمل وعشق الحياة ..

عندما بلغ عبد الوهاب فى القصيدة هذا البيت :

قد يهون العمر الا ساعة   وتهون الأرض الا موضعا

قلت لمنار فى تأثر :

ـ هل سمعت ؟!

قالت :

ـ نعم .. وأحسست المعنى !

تنهدت وقالت :

ـ احك لى عنهما !

قلت ان قصة قيس بن الملوح الذى لقب بمجنون ليلى لشدة غرامه بليلى العامرية ابنة عمه .. قصة لاتزال خالدة حتى عصرنا هذا . أوجزت لها القصة فى عبارات قصيرة لم ترضها فقالت :

ـ اريد ان اسمع منك الكثير !

استجبت لرغبتها حكيت لها القصة كاملة .. وانشدت لها ابياتا مؤثرة من مسرحية مجنون ليلى لشوقى .. وتوقفت عند النهاية !

قالت تستزيدنى لاتكلم :

ـ وبعد .. ماذا كانت نهاية قصة هذا الحب ؟

قلت :

ـ مرض قيس ومات .. بعده ماتت ليلى .. ماتَ العاشقان لحرمان كل منهما ممن يحب ..

تمتمت مطرقة :

ـ مسكينان!

ورأيت خيوط الدمع على وجنتها ..

وجدتنى أضيف لا أدرى لماذا :

ـ بلغ من شدة قيس وهيامه بليلى ، أن سدت عنه ابواب العالم والدنيا فلم ير غيرها فى الكون .. حتى قيل عنه : كان لونظرا لى الوحش فى البيداء يقول « ليلى » واذا نظر الى الجبال يقول « ليلى » .. وان نظر الى الناس يقول « ليلى » .. حتى اذا قيل له ما اسمك وما حالك ؟ يقول « ليلى »!!

قالت منار ساهمة بنظراتها أمامها كأنما تخاطب نفسها :

ـ كل هذا الحب ؟!

* * *

لم يكن ثمة عاطفة مفهومه يمكن أن أحسها تجاه منار .. كان يمكن القول أن عواطفى كانت هادئة غير محتدمة .. يطمئننى اننى لن أجمح فى ساعة انفرادى بمنار الى ما هو أبعد من الاعجاب بجمالها وطهرها بخاصة فى لحظات ابتساماتها التى كنت اقابلها بابتسامات متحفظة

خشية ان تظنها منار اقبالا على اشعال عواطفها .. أو تشجيعها على ما قد يتعدى علاقة التلميذة - اذا جاز القول - بمعلمها !

كان ثمة خيط جميل بين الخيال والواقع ألمسه .. لا أود ان ينقطع !

كنت أتأملها وهى جالسة أمامى كأنها ملاك لاينبغى أن ينحدر الى مستوى البشر!

هل كنت خياليا الى اقصى درجات الخيال !

هل كان « حبى» لمنار - أن صح أن اسميه حبا - يحمل مسحة ملائكية تجعلنى أختص نفسى فى رضا تام بخصال الملائكة ؟!

على انى كنت حين اغادر البيت الصغير اشعر بالحزن والاغتراب .. كأنى أنفصل عن دنيا أضحى ابتعادى عنها مجلبا للتعاسة والشقاء !

كنت احرص على اجتلاب علب التبغ وورق البفرة لطرابيه .. ليلف سجائره الرفيعة .. ويستمتع بجذب انفاسها فى تمهل .. ويدعك اسفل ذقنه ويحك عينه المفتوحة بعد كل نفثة !

وبما اتاحه لى رحابة صدر طرابيه والثقة التى أبداها نحوى .. كثرت من الذهاب الى البيت الصغير دون تحفظ تحدونى رغبة قوية فى أعماقى .. اقضى الوقت فى جوار منار بينما يكون باب البيت مفتوحا .. نتوقع فى كل لحظة قدوم طرابيه حالة غيابه .. لا أتعدى الطرقة الطويلة بداخل البيت بين بابه والحجرة المقابلة ..

كنت اضيق احيانا بجو بلدتى المحدود عند انسدال الليل .. فأخرج مع قريبى صاحب الدراجة البخارية .. متجهين ناحية التقاء النهر بالبحر.. نقف فى الظلام قرب طابية عرابى . نتأمل ضوء الفنار فى دورانه الشاهق .. مقابلا للجهة اليمنى من اللسان ..

يبتسم قريبى كانما كان يدور تفكيره فى شئ :

ـ البحر متزوج بالنهر زواجا أبدى !

تتجه عيناى تخترق الظلمة محدقة تجاه الطريق .. تجاه البيت الصغير .. منار التى يسلبها سجنها احساسها بفتنة الطبيعة وجمال الحياة .

* * *

لم أريوما على وجه منار غير الطمأنينة والرضا بوجودى .. الى جانب ما أحسسته بأنى ضيف مرغوب فيه .. وان كانت الضيافة مع الوقت أخذت منعطفا آخر بتكرر الزيارات ..

كان طرابيه عند قدومه وترحيبه بى ، يسأل منار دائما :

ـ هل قدمت الشاى للسيد بدر ؟

تلقى منار نحوى نظرة ودية وتجيب بالايجاب ..

اتسا ءل فى نفسى ، كيف يقبل طرابيه دخولى البيت أثناء غيابه اهو نوع من التساهل وانعدام المبالاه ؟

التحير فى الاجابة برغم اقتناعى بأن الثقة التى وضعها طرابيه فى شخصى كانت بوحى من احساسه الداخلى دون شك ، بأنى أهل لها .. ومن ثم فهو بالتأكيد مطمئن إلى ذلك الاحساس الغريزى..

* * *

كان يوما سعيدا حين قرأت منار أمامى صفحة فى احدى المجلات المصورة التى جئت بها اليها مزينة بالصور ..

فى يوم آخر جئت لها بكتاب « أوراق الورد » لمصطفى صادق الرافعى الذى احببت قراءة كتبه منذ صباى ..

امسكت منار الكتاب متهيبة .. فتحت لها احدى صفحاته الشيقة أقول لترغيبها :

- لا أطلب منك قراءة الكتاب من أوله .. عليك قراءة هذه الصفحة اولا ثم اقرأى بعدها ما تشائين ..

فى ابتهاج استمعت الى قراءتها .. أحسست انى قد انجزت شيئا مهما بتعليمها القراءة والكتابة ..

قدمت لها فى الأيام الكتاب الثانى « السحاب الأحمر » للرافعى أيضا..

قرأته ..

وكتب لابراهم عبدالقادر المازنى وتوفيق الحكيم ويحيى حقى

وكنت لإعجابى الشديد بيحيى حقى كتبت اليه رسالة اعبر فيها عن حبى وتقديرى لشخصه.

وكانت سعادتى لاحد لها حين تلقيت رد الرسالة الرقيق الذى يفيض بالانسانية ..

الآن يتغير احساس منار بشخصها .. ونظرتها لحياتها ذاتها ..

* * *

لم تغرنى زهوة النجاح بقدر ما دفعتنى الى مرحلة أخرى أربى فيها الوجدان واثراء الجوانب الروحية التى ينبغى أن تتوافر فى شخص منار القابل للتغيير !

كان يشجعنى لاتمام الخطة ، الثقافة التى نلت قسطا وافرا منها بقراءاتى المستمرة واطلاعى الواسع طوال السنوات ..

كنت مغتبطا بالفكرة .. أوقن انى سأجنى من ورائها متعة ذاتية كبيرة!

مع تلك الأفكار كنت أجدنى اعيش أحيانا حيرة العقل واضطراب الوجدان .. لا اكاد أعى هل انا فى حالتى يقظان لن يغلبنى النوم الداهم

لا ادرى فى اى ساعة يجئ !

احـاول ان افـرق فى واقـعى المعـيـشى مع منار بين عـاطفـة القلب والعاطفة الانسانيـة التى تطوق علاقتى بها .. وأجد لها الغلبة فى كثير من المواقف !

بدأت اقدم لمنار الكتاب إثر الآخر .. لتقرأ . وأفسر لهاما لم يفهمه عقلها ومالم يدركه احساسها ..

واضيف الى ذلك اغراؤها بسماع الموسيقى والغناء فى جهاز الراديو الصغير لاثراء المشاعر الجميلة التى تهئ لها حياة مزدانة بالخيال والجمال والأحلام ! .. حياة نستحق ان تعاش .. وجود مستقل تستطيع معه العيش الذى تنشده .. تفهم الواقع من حولها ..

قرأت لهـا « الفضيلة» أو بول وفر جينى بأسلوب مصطفى لطفى المنفلوطى معرب القصة المفكر ..

بدت تستـمع مفتونة بجاذبية التعابير وحرارة الكلمات . والحب العفيف.

كانت متعجبة وحالمة .. يتناوب قلبها الحزن والفرح والألم والأمل .. تبعا لاحداث القصة واحلام المواقف وعواطف الحبيبين

حولت وجهها نحوى بعينين مفتوحتين، لكنهما تنبئان بالشجن تسأل:

- أيمكن أن يحب الإنسان كل هذا الحب ؟

وبدا كأن تلك المشاعر الجياشة تنفذ الى شغاف قلبها .. تستهويها القصة .. وتود ألا أفرغ منها !

ووسعنى فى الأيام التالية أن أقرأ فى قسماتها الشجن باقيا كأنما هو نشيج يكمن فى أعماقها..

وبدا لى انه لاينقصها عن انفجار الدموع غير قصة أخرى من ذات النوع !

الى هذا الحد ينسكب فى روحها حرمان الحبيب من حبيبه ؟

عند ذاك وجدتنى مترددا حينما اخترت قصة « آلام فرتر » للشاعر جوته التى انتهت بانتحاره لأقرؤها لمنار ..

لكنى جلست أمامها جوار باب البيت المفتوح .. يحيطنى فضاء البحر اللامتناهى .. اقرأ لها ..

هالنى الشحوب الذى كسا وجهها .. ونظرة الألم البادية فى عينيها السوداوين ..

ظلت صامتة .. ثم قالت بصوت بدا خافتا لكنه نابض بمشاعر متفجرة :

ـ ذلك المسكين .. لماذا انتحر !!

وجدتنى احدق فيها أتأمل حياتها .. دنياها .. عالمها .. داخل البيت الصغير .. لاتعيش سنوات العمر الذى ينبغى أن تعيشها فتاة فى مثل عمرها .. لافرق بينها وبين انسان يعيش مرض « التوحد »: اخفاق فى التواصل الاجتماعى والتواصل مع الغير تضيع منها شمس النهار بين حيطان البيت الصماء ..

وسألت نفسى وقد اصبحت الانسان الوحيد الذى تجالسه وتتحدث اليه : من أنا فى حياتها ؟ ماذا أمثل لها ؟ كيف تنظر إلىّ ؟

هل يمكن أن أواصل معها « برنامجى» الثقافى بتنمية القراءة الدائمة بعد النجاح الذى حققته بمحو أميتها وترغيبها بمطالعة الكتب .. لأصنع لها حياة مختلفة ؟ .. لاجعلها تحرس أحلامها ، لاتدع احدا يفسدها أويوقف جريانها ؟..

حملت لها مجموعة من الكتب .. طلبت منها ان تضعها فى جوار الاريكة الخشبية التي تنام عليها .. لتكون فى متناول يدها عندما تفرغ من شواغل البيت ..

قلت لها فى رجاء :

- اقراى .. لاتتوقفى عن القراءة .. داومى عليها ..

وكنت سعيدا ..وادركت رغبتها فى معرفة ما تحويه الكتب ..

* * *

كانت منار حين ترى كتابا فى جيبى تسألنى فى فضول :

- ماذا فى هذا الكتاب ؟

اشعر بالسعادة .. فذلك مؤشر طيب بتحولها الى الاهتمام بما يحويه الكتاب .. ومن ثم بالقراءة التى تضئ لها دروب المعرفة ..

أمسك الكتاب واقرأ لها بعض فصوله.

وشجعنى اهتمامها ، فكنت أحمل لها بعض ما أقرؤه وأعجب به وأنقله فى وريقات أطويها وأضعها فى جيبي .

لاعجابى الشديد بالشاعر عبدالحميد الديب .. وتأثرى البالغ بحياته البائسة .. وجدتنى اقرأ لها ورقة احتفظ بها :

- اسمعى ما يقوله هذا الشاعر البائس .

سألت :

- ولماذا هو بائس ؟

ذكرت لها بعضا من حياة الديب القاسية وحظه المنكود وأيامه التعسة ..

وبدأت اقرأ لها :

أذله الدهر لامـــال ولاسكن فـتى تزيد على انفـاسـه المحن
اذا سعى فجميع الأرض قبلته ! وان أقـــام فـــلا اهل ولاوطن
مـسـافـر بين اقطار الأسى ابدا كـأنه بيـد الأرزاء مـرتهن !
ثيـابه كـأمـانيّـه ممزقـة ! كـأنما وهو حى فـوقـه كـفن !
كـأنه حكمـة المجنون يرسلهـا بدون وعى ، فلا تصغى لها اذن!

توقفت لانتقل الى شعر آخر للديب

قالت منار :

ـ الكلام صعب على فهمه .. فسره لى !

شرحت لها فى بساطة ..

وبدأت اقرأ لها :

وداعـا شـبـابى فى ربيع شـبـابى وأهلا حسـابى قبل يوم حسـابى
ومـا يبتـغى من عاش غيـر موفق ثلاثين عـامـا فى أسى وعـذاب
بنى فوق دار الشمس دارة مجده فـسـاكنه فـيـهـا نذير خـراب
طلعت علىّ الدنيا فلا النور فى الدجى ولا الروضة الفيـحاء وسط يباب
ولـكن حظى بدل النور ظلـمـة وبدل مـا اشدو نعـيب غـراب !!
وبـوّت مـن الأيـام وهـى هوامـع بحظ العطاشى من جهام سحاب !!
أمـانى تغـريها الخطوب رأيتـهـا كـأشـلاء قـتلى فى رؤوس حراب
ولـو أن وهـاب الحظـوظ أراد لـى سـلامـة احـواها لخـفف مـا بى
ولكنهـا مـاتت بليلة عـرسـهـا ومن دمها الغالى تخذت خضابى
بدا تـأثر منـار بـالكـلمـــات فـهل تراها فـهـمت .. أم أن

طريقتى فى الاداء هى التى اثارت احساسها !

ذات يوم تحدثنا فيه عن العشق والعشاق .. وكانت تبدو متحفظة يتضرج وجهها بالحمرة حينا .. وتتسع عيناها فى فضول تطلب المزيد من الكلام !

قرات لها ما كتبه « جوته » .. بعد ان حكيت لها عنه وقلت انه شاعر المانى عظيم احب الشرق والعرب والاسلام والنبي محمد .. وكتب عن رجل البادية العربى مشيدا بأسلوب حياته .

اقرأ لها فى كتاب جوته الشهير « كتاب العشق »:

« أجل ، الحب فضيلة عظمى ، ولن تجد نعمة هى أنفس منه .. انه لايهب الجاه ولا الثراء .. ولكنه يجعل صاحبه صنو الأبطال العظماء وكما يتحدث الخلق عن النبى فانهم كذلك ليتحدثون عن وامق وعذراء .. بل هم لايتحدثون عنهما ، وإنما حسبهم أن يذكروهما ، إن اسمهما على كل لسان .. أما وقائعهما وأما حقيقة امرهما ، فليس لأحد بها علم .. لقد أحب أحدهما الآخر وهذا كل ما نعرف وفيه الكفاية ».

ثم يقول جوته :

« واها ! ما كان أسعدنى ! ... كنت أتمشى خلال الحقول فاذا الهدهد يطفر فى طريقى .. وكانت بغيتى التفتيش هنا وهناك بين الأحجار عن ودعات متحجرات مما تخلف عن البحر القديم ، فاعترضنى الهدهد فى اختيال ناشرا تاجه متبخترا فى هيئة المدلّ الساخر .. وانه لسخر الحى بالميت .. فقلت له : « يا هدهد ! فى الحق انك لطائر جميل .. انطلق يا هدهد ! وبلغ حبيبتى أنى لها وملك يمنها ماحييت .. وكذلك كنت من قبل رسول الحب بين سليمان وملكه سبأ ».

فقال الهدهد :

« ان التى انت موفدى لها قد أودعتنى كامل سرها ، فى نظرة واحدة من ناعس طرفها .. وأنا لازلت كما كنت أغبطك دواما على سعادتك ، فأحبب وأحبب فانه مكتوب لك فى الطالع دوام الحب الزاهد بقية أيامك مقترنا بالقوى الخالدة ».

وانتحى الهدهد الى نخلة فاتخذ له عشا بين شماريخها يرمى هنا وهناك باللحاظ .. ما أبدعه ! انه أبدا يرعانا ».

واتبع ذلك بمقطوعة جوته « المن الأربع » التى يقول فيها :

« لكى يسعد العرب في بيدائهم .. رائعين فى بحبوحة فضائهم .. أولاهم المولي ذو الفضل العميق أربع منن :

أولي هذه المنن : العمامة .. وهي زينة أروع من التيجان كافة .. ثم الخيمة يحملونها من مكان إلي مكان .. حتي يعمروا كل مكان !

ثم حسام بتار .. هو أنفع من الحصون وشاهق الأسوار !

وأخيراً - وليس آخرا - القصيد الذي يؤنس ويفيد .. ويستهوي أسماع الحسان الغيد ! »

ويسترسل شاعرنا الألماني في حماسته ..حتي ينتهي الأمر به إلي النقمة علي حياة المدينة ، والتكبير ، والتهليل لما ينعم به الفارس البدوي من الحرية :

« دعوني - كما أهوى - علي صهوة جوادى .. واقبعوا أنتم في بيوت المدر وخيام الوبر ! .. انني لأنطلق جذلان في هذا الفضاء الشاسع وليس فوق عمامتى إلا النجوم الزواهر .. وما زينت السماء الدنيا بمصابيح إلا هدى للناس ومتعة للناظرين ! »

وقد بلغ هذا الشغف بالشرق العربي من جوته مبلغا كبيرا ..حتي

كان يعالج محاكاة الكتابة العربية ،واقامة حروفها ، ورسم كلماتها ، وتوجيه سطورها من اليمين إلي اليسار علي خلاف الكتابة الفرنجية . وقد جره هذا الشغف إلي التغني بالقلم العربي المتخذ من القصب .. فنظم فيه مقطوعة بعنوان (القلم):

«تخرج الأرض من القصب هذه الأعواد للترفية بها عن العباد!.. فاللهم اجعل أصدق المشاعر ، وألطف الأفكار ،تفيض من القلم الذي أخط به هذه الأشعار!»

أغبط نفسي إني أصنع لمنار العالم الفسيح لتنطلق في رحابه بكيانها بدل العالم الضيق الذي يحتويها ..

وقرأت لها شعرا لكامل الشناوى يقول :

إلي أين نمضى أيها الدهر
بعدما نصير هباء
لا ضجيج ولا صمت ؟!
وينسلُ منا الحب والخير والهدى
وينسلُ منا الشر والغي والمقت ؟!
إلي أين يمضى شيبنا وشبابنا ؟!
إلي أين يمضى الومض والنبض والصوت ؟!
.. وفي أي قبو منك
خبأت من مضوا ؟
وأبعدت مثواهم
.. فراحوا ولم يأتوا ؟!
وفي أي يوم نلتقي بهمو ؟

.. أجب !!

فقد هدنا شوق ، وعذبنا كبت !!

بكث منار واختلج جسدها ..

أتبكي أمها ؟ .. أتبكي أخاها ؟ .. أم أرسلت دموعها بكاء علي الأحباب حذرا عليهم قبل يوم فراقهم ؟!

واسمع منار كلمات للعقاد :

* أجمل وجه لا يساويه ألف وجه دونه في الجمال .

* الذين ترجموا (الجليل) بالرائع ينسون أن الروعة قد تكون درجة من درجات الجمال ، وأن الفارق بين الجمال والجلال ليس من فوارق الدرجات ، فليس الجلال زيادة في الجمال ولكنهما شعوران مختلفان : الجميل يجذبك إليه والجليل يهولك ويقفك منه موقف الهيبة والخشوع !

* لقد تعودنا أن نحسب العلاقة بين الذكر والأنثى أصلا للحب بجميع صنوفه وألوانه ، ولكنا واجهنا الحقيقة من وجهة أهم وأعمق تبين لنا أن هذا الحب بين الذكر والأنثى هو فرع طارئ من أصل إلهى قديم شامل للموجودات مستقر في طبيعة الوجود هو حب الكمال والدوام ، وليس الحب بين الذكر والأنثى غاية في ذاته وإنما هو واسطة من وسائط الحب الأصيل .. ان الزهرة المتفتحة التى تطويها في يدك قد يروى لك من فخامة هذه الأسرار ما تمتلئ به آفاق الأرض وأبراج الشموس والأقمار.. فاذا أخذتها بين أصبيعك فاذكر أنها رمز الحب ! وإذا ذكرت الحب فاذكر أنه ـ في كل ما يحيط بنا من الظواهر والخفايا ـ هو رمز الجمال الالهى والخلود السرمدى .

* ان الربيع حب والحب نور ، واذا خفى معنى النور بعض الخفاء

فلنقل أن الربيع هو الشعاع وأن الشعاع يملأ الحياة فتفيض وليس الحب في حقيقته كلها في فيض الحياة .

* عند الحب سهر أحلى من حلم النوم ، ونوم أيقظ من سهر الخلود ..
* عند الحب نور يطوى الشمس والقمر ، وموعد ينسى الليل والنهار
* عند الحب حياة يهوى من أجلها الموت ، وموت تباع من أجله الحياة
* نحب المنفعة مضطرين . ونحب الجمال مختارين .
* المنفعة قيد ، والجمال حرية .

كنت أرى أن التسامي بالمعرفة يحقق لمنار تأمل الآخرين ـ وفهم البيئة من حولها ـ والتمعن فيما تقرؤه وتسمعه من الوان الموسيقى والغناء ..

فهل يشط بي الخيال اذا تطلعت بالأول إلي تحقيق ذلك ؟!

لست أدرى لماذا كنت أقرأ لمنار كثيرا عن الحب وأقوال الفلاسفة والأدباء عنه ! حملت لها ورقة عن الحب تقول :

المرأة بلا محبة امرأة ميتة ـ أفلاطون

ما أقوى الحب فهو حينا يجعل الوحش انسانا وحينا يجعل الإنسان وحشاً (وليم شكسبير)

عندما يقع المرء في الحب يتمنى أن تقيده السلاسل .

الحب داء عضال تجعله العقاقير أسوأ . (جوته)

الحب امرأة ورجل وحرمان ـ بلزاك

الحب أعمى ولكن الزواج يعيد له النظر ـ مثل ألماني

يهجم الحب كالأسد وينصرف كالحمل ـ (فيكتور هوجو)

عاجلا أم آجلا الحب يثأر لنفسه ـ الشاعر الإنجليزى لورد بايرون

من يحب يهذي ـ بايرون

نحن نتأمل العالم من خلال من نحب ـ الشاعر الفرنسي لامارتين

يخطئ من يقرب الحب بفكرة الكفاح والنضال فالحب لا يظهر إلا بعد أن نتخلى عن الكفاح والنضال .. الحب مرادف للاستسلام والتخلى التام.. (الكاتب الأمريكى هنرى ميلر)

ما فائدة الحب اذا جعل المرء يتثاءب ـ ستندال

الحب حق ينبغى الا يحرم منه أحد ـ أرسطو

سئل بودلير : ما هو الحب ؟ فاجاب انه الحاجة إلي فرار المرء من نفسه !

الحب دمعة وابتسامة ـ جبران خليل جبران

الحب يعتبر الساعات شهور والأيام سنين وكل فراق قصير جيلا ! ـ الكاتب الإنجليزى يدن

ما الحب إلا جنون ـ وما أحقر الحب الذي يمكن حسابه وليم شكسبير

انه لأفضل لنا ان نعيش في السلاسل مع من نحب ، من أن نهيم علي هوانا في الحدائق مع من نكره ! الشاعر الفارسي سعدى الشيرازى

مهما تكن هو ذا سيدك (فولتير)

لا خير في حياة يحياها المرء بلا قلب .. ولا خير في قلب يخفق بغير حب (المنفلوطى)

موسم الحب الحقيقى هو عندما نعتقد أننا وحدنا يمكن أن نحب .. وأن لا أحد قد أحب قبلنا ولا أحد يمكن أن يحب مثلنا ! جوته

كل امرئ يصبح شاعرا اذا مسه الحب . أفلاطون

ذهبت إلي البيت الصغير يوما وكنت أحمل في قلبى كآبة مصدرها

ما قرأته لأحد الكتاب في مجلة ثقافية .. وحملته معي لأقرؤه لمنار !

انسانيات[1]

يخطو بنا العمر عتبات الشيخوخة ، فينحدر الرجاء للسفح .. ويخبو المصباح .. وتخمد الجذوة .. وينضب النبع .. ليس عليك إلا ارتقاب مفارقة العيش .. وليس لك إلا بقايا تشبث ماض بالدنيا التي تستغيب متفلتة منك .. تتحسر كأنما تود أن تأخذ لنفسكُ زمنين : زمنك وزمن الغير ! .. تمور نفسك بالسؤال ناظرا لكل ما حولك ، هل ستعود في صباحك أوضحاك ، أو فيما بين الضحى والمساء ، لتبصر ثانية ما تراه عينك اللحظة ؟ .. ألا يغالك الموت في اللحظة التالية ؟

يداخلك إحساس بانعزالك عن الوجود .. أو أنك في القلب منه لا تدرى .. كلتا الحالتين تتناوشك .. لكنك في اليقين القاطع لست مستويا علي عرش المسكونة ، مستقرا كما كنت في ماضى أيامك..أنت كائن منفى في هذا الكون .. يطوف فيك وبك قول واهب الحياة : «وقضيت الأجل .. وأطلت الأمل .. ولولا ذلك لخربت الدنيا .. ولم يتهنأ ذو معيشة بمعيشته » وها أنت يروعك افتقادك الأمل .. فليس بينك وبين المفارقة غير زمن يحدد باللحظة وليس بالساعة أو باليوم ، فهل تستطيع أن تتهنأ بمعيشتك ؟ أبالإمكان أن تحمل ابتسامة صغيرة لشيء حولك وأنت - في العاجل - مبعدا عنه .. يا لظمأ النفس للأشياء ! .. يا لقيمة الأشياء .. يا للشوق إليها .. يا لحبك لها وأنت مغادرها ربما بعد سويعات أو هنيهات .. يقال لك (أطال الله عمرك) .. تختلج نفسك بابتسامة مغتصبة .. أيطيل العمر دعوات ؟! .. امام عينك أحفادك .. صغارهم .. أفي العمر متسع لتراهم كبارا.. أنت في قيد

---

[1]) بقلم مؤلف الرواية ونشرت في مجلة الثقافة الجديدة .

الشيخوخة وراء قضبانها الغليظة ترنو إلي أيامك الراحلة بعين الحسرة.. أين ذهبت.. لماذا ذهبت ! .. يشيع في نفسك الإكتئاب فيسلمك لحالة يأس مرير .. يموج صدرك بالدموع في صباحك ومساءك .. تعتصر روحك الوحشة في وحدتك .. يجتاحك احساس حاد باحتياجك للأنيس.. وثمة حنين مشتعل للماضى البعيد .. اثمة مسار في الزمن لا يزال صوب غد جميل .. أم هرمت المشاعر حتي في التخيل ؟.. وليس من حقك التمنى!

أنت تحمل وطءالسنين .. ربما انسحقت بحملها في ماضيك ، والآن يتخالط احساسك بحلاوة الدنيا ومرارتها .. ترى احدهم مشيعا إلي النومة الأبدية ، فتعتريك الرجفة تهز كيانك .. تتملكك الكآبة ووحشة الحياة .. لست حديث السن .. أو يافعا .. ليختلف شعورك !.. حانت النهاية .. حان قضاء الأجل « وما المال والأهلون الا وديعة .. ولابد يوما ان ترد الودائع » حان قضاء الأجل .. لكن الشعور الساحق بالخوف والجزع والقلق المنهك يقتحمك . ترتبط عميقا بكثير من الأشياء التي دارت في سنوات عمرك .. ترسل بصرك إلي الطريق الذي سلكته عبر المراحل الزمانية جبرا أو اختيارا .. ليس بامكانك احتواء الحياة بتمامها.. محتمل أن تبحث فيها عن المعنى فحسب .. لكنك غير قادر علي التغيير والتبديل .. يشقيك التساؤل عن جوهر وجودك الذي احتواك .. تتداعى في خيالاتك عوالم قديمة ، وتنهض عوالم جديدة تختفى مع الأمل المفقود .. تتكشف لك اسرار جهلتها في ماضيك كله.. لكنك تشعر من جهة اخرى ـ وتتعذب ـ بحقيقة وجودك .. تضع ذاتك وحياتك موضع الإتهام .. ويدور حولها حوار داخلى في نومك وصحوك .. هل صنعت حرية الروح .. هل نافحت عنها .. أم انسحبت

بغريزتك إلي ما هو دونى ؟ أعشت قيم الوجود الإنسانى .. أم صحبت مرحلة التغرب الذاتى التي ينعقد فيها مركز وجودك الحقيقى ؟ أكان (الضمير) في أعمق اعماق حريتك فكنت تدخل في علاقة مع الله .. خالقك ؟

تشعر بالذنب مرة .. وبالندم مرات .. وتعاتب نفسك طويلا طويلا (ليتنى فعلت .. ليتنى أحببت ! .. ليتنى فهمت .. ليتنى أقدمت!.. ليتنى أعطيت .. ليتنى عرفت)

آه ! .. ليتنى عرفت .. لكن أكنت تضمن أن تنجو بنفسك من كوابيس (المعرفة) التي أهلكت قبلك من (عرفوا) ؟

الحب .. رحلة القلب منه .. الحب الذي يملأ الكون .. يرتبط الحب عميقا بوجودك .. الأول .. وربما الثانى .. وربما الأخير الذي غالباً يأتى في مرحلة النضوج فلا يبرح القلب .. وتجلب الذكرى لك التعس المفرط تلتفف بغطائك في ليل الشتاء ، وتسأل أتعود ثانية للتدثر به في ليلة ثالثة أم يكون بديله الكفن هناك .. الشباب .. آه الشباب !.. يا حسرة عليه ! .. بالدموع اللاهبة تبكيه ! يا لضراوة الحرمان .. يا للحنين يلهبك بسياطه في نهارك وليلك .. تسلم جسدك في كل ليلة لفراشك الذي كم (تشاركتما) فيه عمرا .. تشيع في داخلك الأحاسيس كلها.. تغمرك المشاعر كلها .. أتستطيع أن تنفصل عنها مطلق الإنفصال؟ انه الموت الأصغر .. ايجئ معه الموت الأكبر ؟..أتكون ضجعتك الأخيرة؟

اثمة صباح لهذه الليلة يأتى وفي صدرك بعد أنفاس تسكنه ؟

كانت منار مطرقة منذ بدأت السطور الأولى في القراءة .. تستمع في اهتمام .. ظلت في اطراقها عندما انتهيت من القراءة..

لحظت ظلالا من الأسى علي وجهها ..

حين رفعت رأسها كان ثمة غيوم في العينين الجميلتين .. تمتمت في خفوت بعبارات ميزت منها : (الاحساس باقتراب الآجل) (فراق الأحباب مؤلم)

ظللت أتأمل ملامحها . يختلط علي الفهم لا أدرى هل ترجمت احساسها بما سمعته .. أم جانبها الصواب !
أخذت أقلب في فكري ما خلفه ما قرأته في نفس منارمن أحاسيس !
(.......)
كنت في الطريق إلي البيت الصغير أركب خلف قريبى الدراجة حين رأيت عند الفنار لمة من تلاميذ المدرسة الإبتدائية في البلدة .. ادركت أنها رحلة مدرسية لزيارة الفنار .. يقف بينهم أبي بالطبع ليشرح لهم طبيعة الفنار ومهمته التي يقوم بها في المنطقة .. توقف قريبي فجأة وقال انه يلمح هرولة غير عادية من التلاميذ ومدرساتهم .. تساءل :
- ماذا يحدث ؟
انتابني القلق وطلبت إليه ان يهبط بنا إلي أرض الفنار..
هناك كان أبي راقدا علي الأرض بين أيدي المدرستين المشرفتين علي الرحلة .. ووجههما ممتقع يكسوه الانزعاج ..
صحت :
- ماذا به ؟! ماذا أصابه ؟!
قال أحد التلاميذ للمدرستين :
- انه ابنه .
بادرتني احداهما تتوسل بصوت مرتفع :
- سقط فجأة أثناء حديثه عن الفنار..

اسرع قريبي عائدا إلي البلدة ليستدعي سيارة الأسعاف..بينما كنت جاثيا بجوار أبي أضمه إلي صدري ..والهلع يتملكني..

في مستشفي دمياط أسعفوا أبي من أزمة قلبية مفاجئة واستبقوه في المستشفي حتي صباح اليوم التالي ..

لم أفارق أبي طوال تلك الساعات حتي عدت به في سيارة اجرة استأجرتها لنقله إلي البلدة .

في هذه الفترة القصيرة أحسست بالحرمان يتملكني .. الحرمان من الذهاب إلي البيت الصغير ..

لم أكن أدرى أنني سأتغيب ثلاثة شهور بعيدا عن البيت الصغير ..للتدريب في تخصصي الذي اختاروني من أجله تلك الفترة في القاهرة..

(.......)

في اليوم السابق لسفري قلت لمنار :

ـ أليست مصادفة طيبة أن يكون لإسمينا معنى واحد ؟

سألت :

ـ ما هو ؟

قلت :

ـ النور ..

فهمت وابتسمت ابتسامة مشرقة ..

قلت لها :

ـ توحد المعنى في الأسمين ..

وقلت :

ـ ألن تتمنين شيئاً ؟

مع ابتسامتها قالت !

- مثل ماذا ؟

قلت :

- أن يملأ حياتنا النور ..

رفعت عيناها إلي أعلى محدقة في الفراغ بنظرة شاردة ..

بدا لي كأن النور يشع من وجهها الطيب ..

(.......)

كنت اتلقى في مركز التدريب بين الحين والأخر خطابات معتز .. يسأل عن أحوالي ويبلغني عن سير العمل في أولاد حمام ..

كان يخفف عني وجدتى في حجرة صغيرة بالفندق ، ويعدى عن البيت الصغير ، زياراتى بين آونة وآخرى ليحي حقى في بيته بمصر الجديدة ..

وكنت أجدها فرصة طيبة ساقها القدر لأسعد برؤية الأديب الأنسان.. يرحب بي .. يجلس في مقعد ملاصق لمقعدى بلا تكلف في حجرة مكتبه.. احادثه واستمع إلي كلماته وآرائه في المجتمع والناس .. في عينيه الطيبتين يشع حب الخير لكل البشر .. حب الإنسانية ..

كان قد مضى ثمانون يوما من الفترة المحددة للتدريب .. حين جاءني خطاب معتز .. الذي لم أفضه إلا في الليل . عندما احتوتنى حجرة الفندق بعد زيارة ليحيى حقى :

(اتذكر الصياد الفقير الذي اسمه طرابيه ؟ .. لقد قابلته في دمياط خارجاً من مستشفي الصدر ، بينما كنت في الطريق إلي محطة الأوتوبيس لأستقل أتوبيس المنصورة .. كان بصحبته ابنته الجميلة .. ادركت من شحوب وجهها البادى ومشيتها المنهكة أنها مريضة .. اشفقت علي الرجل الذي بدا كسيرا حزينا .. تحادثت معه فيما كنا نسير

معا تجاه محطة الأوتوبيس .. عرفت ان ابنته مرضت منذ فترة لم يعرف طوالها انه مرض الدرن ... ادخلها المستشفي في دمياط لتقيم به شهرا للعلاج ... بعده قالوا لا أمل في الشفاء لتملك المرض من الفتاة .. لاأكتمك إني تألمت كثيرا ..أسألك : هل الأمر يهمك ؟ .. لدي احساس يقول (نعم) !.. فاهتمامك بالرجل كان باديا .. أليس هو الذي اشتريت له القارب والعباءة ؟

لذا كتبت لك هذا الخطاب .. »

ظللت يقظا يجافيني النوم حتي الفجر .. عندما غفوت رأيتها في ثوب أبيض طويل حتي القدمين .. كانت تقف تحت تعاريش الكرم .. يجلل وجهها الطهر ... ناديتها فابتسمت .. مدت يدها فوق رأسها تقطف ثمار العنب .. أقبلت عليّ تحمل لي العنب في راحتيها النديتين محفوظا علي اغصانه .. عنقودا يبرق في يدها الطيبة كبللور .. كان خلف قامتها المدى الذي رحت أتأمله .. برغم اشتياقي إليها .. شهدت عيني هناك فوق الأفق سحابة يهبط ظلها فيغطيها ويقذف في قلبي الكآبة ..أتعجب من نفسى كيف أغفل عن اليد الممدودة إلي بعنقود العنب .. حين ارخيت نظرى إليها ومددت يدى خافق القلب لأتناول العنقود لم أجدها .. اختفت من أمامى .. كأنما حذف من الحياة القلب الذي يهوانى : فماذا يبقى لي ؟

(.......)

كان طرابيه نائما تحت ظلال القارب الصغير علي الرملة..

احس وقع خطواتى قرب البيت الصغير .. نهض في سرعة وهتف مقتربا منى :

- حمد الله أنك جئت ..

فهمت ..

تقدمنى إلي حجرة منار .. فتح الباب في صمت ..

كانت راقدة علي أريكتها ناحلة العود .. متهالكة ..

لمحت في جوار الأريكة عند رأسها كومة الكتب مرصوصة فوق بعضها..

رأيت ابتسامتها الواهنة تستقبلنى بها ..

انحنيت عليها بقلب ينشج بالبكاء - كانت تمسك بمنديل تضعه علي فمها عندما تسعل ويهتز جسدها بشدة ..

وانفاسها تتقطع قالت :

- لم اعرف عنوانك هناك .. لأكتب لك .. اكتب لمن علمنى الكتابة

آه .. كنت اخشى ألا أراك .. قبل أن ...

وضعت يدي في رفق علي فمها قبل أن تكمل ..

تسعل ويهتز جسدها النحيل ... اخلت يدها المنديل لتضعه في جوارها .. كانت تفترشه بقع الدم ..

وضعت منديلى في يدها .. رفعته إلي فمها وقبلته ..اهتز قلبى ..

مع ابتسامتها الوانية قالت !

- قرأت في الكتب .. في ضوء النهار .. قرأت .. في لمبة الجاز ..

في الليل هنا .. علي هذه الكنبة .. قرأت .. عرفت الكثير عن الحياة .. أهذا هو .. النور .. الذي تعنيه ! .. الذي قلته لي قبل سفرك

آه .. ليتنى عرفتك .. من زمن ..

سعلت ووضعت المنديل علي فمها .. راعنى دائرة الدم الكبيرة تتوسط المنديل .. الداء ينخر في صدرها .. يطل من عينها الجميلتين.. يغلف ملامحها الشاحبة وأوردتها التي تبين زرقتها تحت الجلد الرقيق ..

جثوت علي الأرض أود أن ألصق وجهى بوجهها..

قالت في صوت خافت متهافت :

ـ أحزن لمفارقة الدنيا .. وأنت دنياي .. أنت الدنيا !

رحت أزيح بشفتى قطرات الدمع العالقة بأهدابها .. قبلت وجنتاها الضامرتين .. بللتهما بالدموع ..

بدا لي كأن ظلال قلبها تنتشر في قسماتها التي تنضح بالصفاء والطيبة ..

ــ قرأت لي روايات .. عن الحب العظيم .. حكيتَ لي قصص .. يموت أبطالها في النهاية .. فهل سأكون مثل واحدة من هؤلاء؟

ـ لا .. لا .. ستعيشين .. ستعيشين لأنى أريد أن تعيشين ؟ يا حبيبتى..

تأوهت :

ـ ما أجمل الكلمة .. حبيبتى .. ما أسعدنى بها .. ستكون هي زادى .. الذي لا ينقطع .. في أيامى الباقية .. أن كانت هناك .. أيام باقية .. لم أسمعها أبدا .. هل لأن منار .. لا تستأهلها .. ألم ترتفع قيمة منار في نظرك .. بعدما تعلمت ..

لم أشعر بدخول طرابيه الحجرة إلا عندما وجدته بجانبى .. يطل علي ابنته كسيرا .. يحتويها بعينه الواحدة ..

غادرت الحجرة .. في ضباب يحجب الرؤية عن عينى ..

خوجت للطريق .. مظلمة الطريق .. وشمس النهار ساطعة ..

كل شيء يختفى حولي .. لا وجود .. شمسى يطويها المغيب ..

هي النور كانت .. يضئ لي ما أحببت أن أراه علي الطريق ..

عطية السماء للقلب الذي لم يعرف سوى الحب الخالص نقيا صافيا .. طاهرا .. ولم يبح .. لم يعترف به حتى بينه وبين نفسه .

لا يملك القلب إلا الدموع .... مطر الدموع .

وغابت

كانت تقف في وسط الحجرة حين دخلت ..

لم اتقدم خطوة اخرى .. جمدت في وقفتى قرب الباب لا أتجاوز مكانى مأخوذا بجمالها ..

من أين جاء هذا الجمال ؟ يونانية هي أم ايطالية ؟

القوام الفاره المشوق .. الوحه المشرب بالحمرة .. العينان الواسعتان المتيقظتان طويلتا الأهداب .. الشعر الذهبى الطويل المنسدل علي الكتفين .. الابتسامة الساحرة .. الانوثة الطاغية ..

ليست مثل البغايا رأيتها .. تتوثب حيوية ونظرة .. تستقبل الزبون بابتسامة لا تعرفها البغى عادة ..

لابد أنها حديثة العهد بالمهنة !

لكن لماذا اختارت مدينة المنصورة لتجئ إليها .. لا يبدو أنها بغى محترفة .. فلماذا القت بنفسها في هذا المستنقع ؟

هذا الجمال لا ينبغى إلا أن يكون خدين الطهر والعفاف ليزيد اشراقا وتألقا وبهاء !

بيد أن رغبة مطالع الشباب المشتعلة دفعتنى نحوها .. طوقتها بذراعى مشتهيا تقبيل شفتيها المكتنزتين ..

انفلتت من بين ذراعى قائلة :

- انتظر ؟ ليس الآن !

حين راتنى اجمد في وقفتى مستغربا اقتربت وامسكت يدى بين يديها .. ونظرت إلي وجهى ..

لم أر في عينيها نظرت البغى المستباحة ..

- سنجلس معا قليلا !

سبقتنى إلي الأريكة الخشبية المحاذية للسرير معلقة النظرة بوجهى :
- تعال .. اجلس بجانبى ..
مدت يداها لتحتوى يداى فى رقة ..
علي غير عادة البغى تستمهلنى .. لا تتعجل إنهاء الوقت القصير المحدد الذي يسمح به للزبون !
في ذات اللحظة استبعدت أن تأخذ الوضع الذي تأخذه البغى عادة لاستقبال الزبون .. لم يكن مظهرها الجسدى قابلا لذلك ..
خمدت في الحال رغبتى المستعرة ..
مسحة من الطهر لا أملك إلا النظر إليها بغير اشتهاء ..
ظلك ممسكة بيدىّ بعد أن جلست بجانبها :
- كلمنى عن نفسك ..
اخذتنى الدهشة متعجبا ..
بدا الموقف غريب .. لم أجد غير أن أقول :
- أهذا مهم في وقت كهذا !
- اريد أن أسمع شيئا عنك .. أنت صغير بعد .. كيف تعيش ؟!
أطل في عينها حنان جعلنى أقول في بساطة :
- مع أختى الشابة أعيش . أعولها .. ماتت أمى بعد ولادتى ..
أبي كان غائبا عنا في سفر طويل لم يعد منه ..
وجدتها تضمنى إليها في عطف تقول :
- يا بنى العزيز ! .. لم تذق طعم الحنان .. وحملت الهم قبل الأوان .
وجدتنى مستكينا بين ذراعيها الحانيتين .. يدهمنى احساس بحرمان السنين ..

ـ كأني أراه بجانبي الآن في شخصك .. ابني .. الشعر الأصفر .. الوجه الأبيض المستدير .. العينان الواسعتان عميقتا النظرة ..

ملست في رقة علي ظهر يدى :

ـ حتي أصابع يديك .. هي أصابعه لا فرق !

مالت تقبل أصابعى في شوق أحسسته يموج في صدرها ..

تراجعت برأسي إلى الوراء ونظرت في وجهها .. الأسى يرتسّم في ملامحها :

ـ انه هناك .. جندى يحارب الطليان والألمان .. في صفوف الجيش اليونانى ..

تعكر صفاء عينيها :

ـ اخشى عليه من الموت هناك .. ليت تلك الحرب تنتهى ..

كأنما تسائل نفسها :

ـ لماذا طالت الحرب ؟!

نهضت تقول بصوت يحمل الحنين والشوق :

ـ أراه أمامى دائما .. يطل من نافذة القطار الحربي الذاهب إلي الميدان .. يلوح لي بيديه مودعا .. والدموع في عينيه كدموعى ..

عادت فجلست تردد :

ـ أخاف علي ولدى .. أخاف أن أفقده ..

لمحت الدموع في عينيها .. التقطت من حقيبة يدها الملقاة في جوارها منديل أنيق .. مسحت عينيها .. وعادت تمسح الدموع العالقة بأهدابها ..

كان الموقف جديدا عليّ .. لم أجد كلاما أقوله لمؤاساتها ..فقط ملأنى الاحساس بالعطف والألم ..

لم يعد أمامى غير انسانة بائسة ..

غادرتها غارقا في مشاعرى ..

في مواجهتى خارج الحجرة كان هناك ثلاثة رجال يجلسون في صف واحد علي مقاعد متلاصقة .. ينتظرون دورهم ..

ارتعدت .. وشملتنى الكآبة ..

وجدتنى بعد يوم واحد اذهب إليها في المساء .. مدفوعا بالرغبة في رؤيتها ..

عندما لم أجدها سألتهم عنها ..

عرفت أنها أصيبت ساعة العصر بمغص حاد ، لم تقبل معه محاولة نقلها للمستشفي .. وغادرت البيت تستقل عربة حنطور إلي بيتها ..

أين هذا البيت ؟

في عصر اليوم التالي رأيتها .. عجبت للمصادفة ..

كانت تقف علي الكوبري العالي تطل من فوق السور المرتفع علي قطارات محطة السكة الحديدية .. إلي جوارها كلب ابيض نظيف تمسك بسلسلته ..

غائبة عن الحركة من حولها مستغرقة في إطلالتها .. هل تعيش بكيانها مع حركة القطارات ذكرى ذلك القطار الذي كان يومها يقل ولدها ؟ وجدتنى اندفع نحوها في لهفة ..

التفتت فجأة .. رأتنى ..

اشرق وجهها بالفرحة وشعشعت عيناها بابتسامة حانية ..

ابتعدت عن السور وسحبت يدي تضغط عليها بيدها الخالية :

ـ هل سألت عنى هناك ؟

قلت :

- قلقت عليك ..
في تأثر هتفت :
- حقا ؟
قلت :
- لم اعرف بيتك لأذهب إليك ..
فاجابتنى بقبلة علي ظهر يدي ..
قالت :
- تصنعت المرض لأهرب من البيت .. كان ينتابنى الاشمئزاز منذ صباح الأمس .. لم أطق أن يدخل عندي رجل ..
في استحياء قالت :
- تعبت .. كل رجل يدخل البيت ..يريد « الإجريجية » ..يريدنى .. لا يرضى بامرأة غيرى حتي لو انتظر الساعات ليجئ دوره ! ..هل استطيع أن أحتمل !
اخفضت رأسى .. تتناهبنى مشاعر ثقيلة ..
نظرت إلي وجهى .. قالت :
- لن اعود إلي هذا البيت ..
أضافت قائلة :
- لا اريدك أن تذهب إلي هناك..
أوضحت قائلة أن هناك بعض النسوة من خارج تلك البيوت .. يأتين في المساء ليمارسن البغاء .. غير مرخصات .. ولا يخضعن كالأخريات للفحص الطبي الدورى .. لذلك فهي تخشى عليّ من عدوى المرض
أشارت إلي الكلب مبتسمة :
- كانوا يحتفظون به في النادى اليونانى .. جئت به معى من أثينا..
نزلنا معا سلالم الكوبري الخشبية ..

احتوانا شارع السكة الجديدة ويمناها تمسك بيدي ..ويسراها تقبض علي سلسة كلبها .. والناس ينظرون نحونا في فضول ودهشة ..

جذبت يدي لنسرع مبتعدين عن دكان البقالة الذي يقف علي بابه صاحبه اليونانى بمعطفه الناصع البياض ..

- هناك شارع ضيق جدا اسمه سوق الخواجات .. سنمشى فيه ..هل تمانع ؟

دون أن ابدى دهشتى قلت :

- لا..

كان المشهد غريبا في أعين الغادين والرائحين وأصحاب المتاجر المتلاصقة في الشارع الضيق المعتم .. المسقوف بقماش أقلعة المراكب القديمة المتمزقة ..

عدنا إلي شارع السكة الجديدة .. نمشى متلاصقين..

مضت تتكلم ..

جاءت إلي المنصورة التي تمتلئ بأبناء جنسها ، بأمل ان تجد عملا لتعيش منه .. اقامت عند اسرة يونانية رقيقة الحال فترة طويلة دون ان تجد عملا ،أي عمل ..

لم تتصور ان ينتهى بها الحال إلي تلك البيوت التي ذهبت إليها بدون ترخيص بممارسة المهنة .. كيف خاضت هذا المسلك الشائن ..لا تدرى ..

علي ناصية حى « ميت حدر » أمام دار السينما توقفت ..قالت :

- سعدت برؤيتك قبل ...

دهمنى قلق مبهم .. عاجلتها بقولى :

- قبل ماذا ؟

- سأسافر ..

ـ تسافرين ؟!
تحشرج صوتى وأنا أسألها .. ويد قاسية تلطم قلبى :
ـ إلي أين ؟
كأنما كانت الدنيا تدور بي .. جاءنى صوتها:
ـ ذاهبة إلي أثينا .. ابني هناك في اجازة قصيرة .. ينتظر رؤيتى .. سأحاول العيش في مدينتى ..
نظرت إلي وجهى الذي شحب لونه .. مالت عليّ وقبلت وجنتى وجبينى .. تجمع الحنان كله في قلبها يحتضننى .. الحنان الذي سأفقده..
رفعت وجهها نحو الشرفة ذات السياج الحديدى قبالة دار السينما :
ـ هذا بيت الأسرة اليونانية التي كلمتك عنها ..
لم تكن عيناى تتجهان للشرفة ..
كانتا تائهتان تدوران في فراغ كئيب ..
اختلج صوتى بالحزن وأنا أسألها :
ـ متى السفر ؟
بصوت خفيض قالت :
ـ غدا في الصباح ..
رددت في يأس :
ـ لن أراك مرة اخرى ..
امسكت يدها بقوة .. قبلتها غير عابئ بالعيون المتطلعة نحونا ..
انفلتت من أمامى مسرعة ، كأنما تريد إنهاء الموقف ..
لم أرها وهي تدلف داخل البيت .. فثمة ضباب كثيف يعمى عيناى..
لم أعرف لها اسما !

سجين الزمن

في المقهى الهادئ كنت اراه يجلس في ركن وحده .. نظارته الذهبية علي منضدة بجواره .. مائلا برأسه .. يسند صدغه علي يديه القابضة علي عصاه الأبنوس .. يطول به الوقت ..

كنت اختار مكاني اليومي بعيدا عن زبائن المقهى ... مصادفة كان المكان قرب مكان الرجل الذي عهدته هو الآخر يفضله ..

احسسته يميل إلي الهدوء والصمت !

كان يرفع رأسه احيانا وينظر نحوى ، بينما أكون مستغرقا في قراءة كتاب .. استشعرت نظرته ! .. انحى الكتاب وأتجه بعينى نحوه ..

ذات مرة ظل يطيل النظر .. بدا انه يريد التحدث إلي .. تناول نظارته من فوق المنضدة ووضعها علي عينيه .. قام من مكانه وجلس بجوارى ..

- أراك تجلس وحدك دائما .. أليس لك أصدقاء ؟

قلت :

- أميل إلي الوحدة ..

- لتقرأ !

أمسك الكتاب الموضوع علي المنضدة يقرأ عنوانه ..

- ديوان شعر .. جميل !

ابتسم .. كشف عن أسنان منحنية الأطراف لكنها ناصعة البياض برغم سنه المتقدمة .. قال :

- أنا أيضا أقرأ الشعر .. أحبه .. عندي ديوان العقاد وحافظ إبراهيم..و« الشوقيات » لأحمد شوقى .. ارى انه يجب ان تكون اعمال هؤلاء الشعراء في متناول كل انسان ..

بينما نظرت إلي وجهه النحيف وقسماته السمحة قال :

ـ استأنس بقراءة الشعر .. اعيش وحيدا ..

في التو هزتنى مشاعر العطف ..قلت :

ـ الوحدة قاسية !

ابتسم فى أسى :

ـ علي عجوز أقسى وأظلم !.. موجعة !

اخذ يدير العصا بحركة رتيبة في كفه ويتكلم .. انه يقصد هذا المقهى رغم بعده عن البيت ، للجو الهادئ الذي يجده فيه .. لا لعب ورق مصحوب بالشجار والشتائم ولا لعب نرد .. ليس غير الشطرنج .. لا صخب ولا جلبة !

ـ طوال حياتى لم أمارس لعبة من تلك اللعب .. لا أميل إلي ذلك ..

حول وجهه إليّ ..

ـ اننى معجب بك شابا ينفق وقته في شيء نافع ... راقبتك أياما كثيرة في جلستك ! .. الكتاب في يدك .. تجد متعتك في القراءة دون شك ..

ينطلق في حديثه كأنما يعوض زمنا من الصمت !

كنت اكتفى بالإصغاء إليه .. شاعرا انه يجد راحة في التحدث معى في لحظات الصمت كانت ملامحه تنطق بالود .. وعيناه تطلان عليّ متبسمتين .. تدعونى لصداقته !

ـ قليل الكلام أنت ! .. هذه طبيعتك بالتأكيد .. ربما لأنك تميل إلى التأمل والتفكير .. هذا ما تورثه مداومة القراءة ... تتردد علي المقهى كل يوم .. الحظ ذلك !

تنهد :

ـ أحببت مدينتكم .. ألست من المنصورة ؟ .. لم أغادرها أبدا .. من القاهرة جاءت بي الوظيفة ـ أفرح بها وأعجب بنفسي ! ـ إلي هنا .. حتي عند التقاعد لم أبرحها ..

كفت يده عن حركتها مع العصا :

ـ فيها أحببت .. منها كانت الحبيبة ..

انخفض صوته قليلا :

ـ في ترابها الذي عشقته دفنت . بها سألقاها !

بدأ كلامه يستأثر باهتمامي. .احسستني اقترب منه .. أستشعر المودة التي يقبل بها عليّ ..خلع نظارته وأعادها إلى جرابها في جيبه.

بدا الأسف في نبراته :

ـ لم أتخيل ان لقائى بها سيتأخر تلك السنوات الطويلة !.. في الثمانين أنا الآن .. وهي في ربيع العمر كانت حين غادرت .. ستون عاما عشتها بعدها .. لم ألحق بها !..

تصاعدت في ملامحه الدهشة ..كأنما يكتشف شيئا لتوه ..عاد يردد :

ـ هل أصدق أن تمضى كل تلك السنوات ولا نلتقى !

أشرع عينيه لسقف المقهى :

ـ حينها كنت شابا وسيما .. اطوف شوارع المدينة «مهندس البلدية» في عربة حنطور .. هناك رأيتها .. الفتنة في شرفة طابق أرضى لبيت قديم .. خلفها في البيت الهادئ يتردد صوت المغنى كأنما يعنيها بذاتها ! .. كأنما يتكلم بلساني !..« فاتنة الدنيا وحسناء الزمان »

جننت بها ..

اوقفت عربة الحنطور في يوم تال أمام بيتها .. نزلت لألقى في

شرفتها ورقة الحب :

« يا فاتنة الدنيا ! .. محب يمر كل يوم بشرفتك في عربة حنطور ..يحلم بابتسامة منك تنير له الدنيا ! .. يرجوها .. يشتاق إليها يتلهف عليها .. هل تمنحينها ؟! »

كنت أخشى أن تقع الورقة في يد غير يدها فلا أظفر بشئ ! .. الابتسامة وحدها ـ ان لم تبخل بها ـ ستجلو الموقف .. وتبعث الأمل ! التقينا ..

احتضنتنا حديقة شجرة الدر بخمائلها الحانية .. نتناجى .. نبث الأشواق .. نتعاهد .. نحضن الأحلام .. نرسم الأمل على الطريق .. نكره الساعة الخامسة موعد مغادرة رواد الحديقة !

اختار لها الأهل الفقراء رجلا واسع الثراء..

كاشفتهم بحبنا .. والأيام المقبلة بالعش المأمون يضمنا.. لم يبالوا..

ليلة عرسها .. شربت السم ..

وريقة كتبتها :

« انتقم لنفسى منكم .. أترك لكم الحسرة والندم ...لن أقول وداعا.. لحبيبى وحده أقولها ».

كأنما مست الكلمات التي استعادها وجيعة قلبه ..

ـ آه .. لكم تمنيت أن أرى الوريقة ! .. احضنها في يدي .. أضمها بين ضلوعى !

صمت لحظات..

ـ في اندفاع وهوج .. ها جمت الحياة ! .. أقتحمتها .. أأخذ منها ما يمكن أخذه ! .. كل شيء ان استطعت .. أعبها عبا ! .. لا أرتوى .. لا أشبع أمرض .. اتمرد على الفراش .. اهجره .. افرطت .. اسرفت .. لا أسف .. لا ندم .. كمجنون كنت .. لا حبيبة بعدها !.. لا زوجة سواها ! .. اسمها « روح الفؤاد ».. كانت حقا روح الفؤاد ..

(.....)

دلفت إلي المقهى في المساء مبللا بالمطر .. كان يجلس في مكانه ..

لم أكد أجلس في جواره حتي قال :

ـ كان عندى احساس انك ستجئ .. لا يمنعك المطر والبرد الشديد ..

صوته كان واهنا مرتعشا ..

تطلعت إلي وجهه .. راعنى شحوبه .. كان واضحا انه في حالة اعياء يحاول مقاومته ..

قبل أن أسأله ماذا به بادرنى قائلا في رجاء :

ـ هل يمكن ان توصلنى إلي البيت .. سأدلك عليه في الطريق ..

امسك يدى عندما نهضت من فورى دون كلمة :

ـ الا تريد ان تشرب شيئا ساخنا يدفئك .. يمكننى الانتظار !

نفضت يدى من يده :

ـ كلا .. سأحضر تاكسيا ..

عند باب شقته اخرج المفتاح من جيبه في حركة بطيئة :

ـ افتح من فضلك ..

نحو باب حجرة مفتوح رفع عصاه يشير بها في ضعف :

ـ حجرة النوم ..

ارتمى علي السرير دون أن يخلع حذاءه :

ـ بأذنك !

سحبت كرسيا وجلست بجوار السرير ارقب وجهه المتغضن في قلق ..

ـ كنت اريد ان ادعوك مرة هنا علي العشاء ..

ابتسم منتزعا صوته :

ـ عندى كثير من الأطعمة في الثلاجة .. أعرف كيف اتعامل مع المطبخ لأطبخ الأصناف الشهية .. علمتنى الوحدة ! ... لا ابخل علي

نفسى .. لا قيمة للمال خاصة عندما تكون وحيدا .. لا قيمة له إذا لم تسعد به انسانا ..

أمال رأسه نحوى بنظرة مودة هزت قلبى :

- تجئ الآن بدعوة المساعدة لتوصيلى إلي هنا .. ليتنى أقدر أن احضر لك دواوين الشعر ..

كمن يتأوه بالشكوى قال :

- عشت تلك السنوات كلها يلازمنى الشعور بعدمية الحياة .. ولم أفارقها !

كنت صامتا .. تتملكنى الحيرة .. ماذا أفعل له ؟ ماذا أقول ؟ .. والأسى يسكنى ..

في اضطراب قلت :

- هل ادعو لك الطبيب ؟

- كلا ..

ابتسم :

- لم أدخر من الشباب للشيخوخة .. ظلمتها !

اغمض عينيه .. فتحهما .. نظر إلى .. قال بصوت منخفض :

- هل ستجيئنى في الصباح .. تطرق الباب لتطمئن علي صديقك!.. لن تطرق غير مرة واحدة .. سأسمعك .. وأفتح الباب .. اننى استيقظ دائما مع اذان الفجر في المسجد المجاور .. بعدها لا أنام .. في أكثر الليالى أجدنى عاجزا عن مجالدة الواقع المر !

(.........)

لم ينفتح الباب في الصباح ..

طرقت كثيرا ...

الذين نحبهم

«كتبت عام ١٩٥٧ ولم تنشر»

هبت العاصفة في دكان زيان الخياط .. حين قدم موظف الإسعاف ، فانهال علينا حالما جلس بيننا بما وقع له في يومه :رجل يحترق .. يقف كفحمة سوداء مادا ذراعيه يصرخ فيفزع ويرعب .. شجاعة الراوى حين اخترق الجمع المحتشد ، واحتضن الرجل ليلقى به في عربة الإسعاف ... أنين الرجل وصراخه في الطريق .. أديم وجهه المتساقط وسحنته الشيطانية المفزعة .. و ..

عند ذلك هب زيان مستشيطا وصاح في الرجل ، ورذاذ الطعام الذي يتناله لتوه يتناثر من فمه الخالى من الأسنان .. أن يخرس عن الكلام في هذا الحادث المنفر .. وصرخ في الرجل :

- يا أحمق .. يا نطع ..

ثم جلس يهدر قائلا من ذلك الانسان الذي تستسيغ نفسه الطعام بينما يسمع كلاما كهذا عن الحريق والمحترقين .. والإسعاف .. وهذا التنطع الغريب ..

ونهض موظف الإسعاف من مجلسه يهم بالانصراف غاضبا .. وأشار باصبعه في زراية إلي طبق الطحينة الحمراء المخلوطة بالزيت والثوم ،واعواد الفجل المستلقية إلي جوار الطبق والتي يحرص زيان علي أكلها في كل وجباته ليتداوى بها .. كما قيل له .. من ضغط الدم المرتفع .. واعلن رأيه في هذا الذي يسمية زيان طعاما ، والذي تعافه النفس دون حاجة إلي الحديث عن هذا أو ذاك ..

شيعه زيان بنظرة حمراء ، ومضى في طعامه ..

هدأ الموقف .. وتخللته فكاهة ساذجة حين مالت ابنة أحدنا الصغيرة علي أبيها تضع اصبعها الدقيق تحت أنفه متسائلة :

ـ ابي ! .. كان هنا شارب !

ضحكنا وضحك أبو الصغيرة مجيبا بنعم ..

عادت الصغيرة تسأل في براءة اغرقنا لها في الضحك :

ـ وأين رميته ؟!

تحمس زيان للصغيرة التي أضحكته ، وكان قد فرغ من الطعام ، فنهض يرفعها بين ذراعيه مداعبا .. ثم جاء لها ببضع بلحات وأجلسها علي ركبتيه .. ومضى يقبلها ..

كان منا من يقول عن زيان مجنون .. وآخرون يقولون شاذ .. وغيرهم يقول سليط اللسان مغرور .. وقليل منهم كان يدفع عن الرجل هذا وذاك، بأنه انطوائي يتحوصل في عزلة غامضة .. ثم يظهر بتصرفات هي رد فعل لما دار بينه وبين نفسه في عزلته تلك ..

زيان كان عزبا في السبعين .. عرف بيننا بعدائه للمرأة ، رغم انه منذ عهد الشباب كان خياط ثياب السيدات .. ثم انصرف عنهن إلي الخياطة للرجال ... سألناه مرة لماذا هجر الأولى وكلها مكاسب .. مط شفتيه ،قال :

« لأريح قلبى » ! .. ولم يزد ..

ما سمعناه ابدا يتحدث عن مشاعر القلب ونزعات العاطفة الا حديث السخر والتهكم .. والمرأة عنده لا تعدو أن تكون مادة طريفة للمفكرين والمتأملين !

نظر أحدنا إلي زيان وهو يحنو علي الطفلة .. ويمسك بيدها الصغيرةيقبلها .. ثم غمز لنا بعينه كمن يقول : « انظروا ! » قبل أن

يخاطب زيان وكأنه التقط من المشهد ، خيط الحديث :

- ماذا عليك لو كنت قد فعلت مثلنا وتزوجت .. لتأتى بأولاد مثل هذه!

فعلت العبارة فعلها في نفس زيان .. تغير وجهه .. وتحول إلي الرجل يسقط عليه نظرات حبلى .. ثم رفعها عنه إلي وجوهنا...

توقعنا ان يتكلم فيحكى لنا شيئا عن ماضيه الطويل الحافل ..

وصدق ظننا حين أنزل الطفلة عن ركبتيه وانتصب بعوده النحيل ليقف وراء الطاولة العتيدة يعمل بمقرضه في قماش من الصوف ..

ظللنا صامتين تتداول عليه نظراتنا .. رأيناه يشعل لفافة السيجار الفاخر الذي يعلقه دوما في فمه في أرستقراطية نضحك لمنظرها ..

تكلم زيان :

- ظللت أحب ثلاثين عاما من عمرى .. احب امرأة واحدة اقررت لها دون بنات جنسها جميعا .. بالتفرد والإمتياز !.. حتي لكأن مزايا الحياة كلها ومباهجها تجمعت في شخصها !..

ومهلا .. فسوف أحكى لكم ..

كنت فاجرا قادرا علي مغازلة أربع نساء في وقت واحد .. وأنال منهن ما أشتهى مجتمعات !! .. وكان ذلك يحدث في دكانى هذا الذي تجلسون فيه الآن ..

كنت أخفى وكر الملذات بستار ثقيل عرف عنه أنه يحجب (الزبونة)عند أخذ القياس ..

كانت الكثيرات من زبائنى ينجذبن إلي - لا أدرى كيف - فتعرض حسنها بين يدي .. يدي فاسق نهم ... في الثامنة عشرة ضم إلي

أحضانه أول امرأة أغرتها وسامته وشبابه .. وفي العشرين تعلم كيف يدخن أنفاس الحشيش .. وفي الخامسة والعشرين رافق الكأس .. ثم فتح ذراعيه - يعينه كسبه المادى من مهنة الخياطة .. لكل محرم من لذاذات الحياة .. وساعات كان ينبثق في داخلى شيء ما يجعلنى انتفض في قيودى .. وأحتقر في نفسى عبوديتها للجسد الحرام .. فيتدفق في شرايينى اعصار جائح من الكراهية والنفور لكل ما أعيش فيه .. ولعله كان بوسعى أن اتحرر من اسارى لو لم احس انى صرت عبدا لما صنعته لنفسى .. اجل ..كان من الصعب بل من المستحيل أن أبدا حياة غير ما عرفت !

أن القى بالثوب الدنس لأعود نظيفا عفيفا .. محال أن أنقذ نفسى بنفسى .. لابد لانسان ما أن يقف في طريقى .. انسان لا يقسو علي بل يرحم حيرتى وضعفى .. لا يلطمنى وأنما يربت علي فى عطف وحنان !

ونمت ذات ليلة فرأيت حلما كانت بطلته امرأة غريبة عنى .. لم يسبق لي أن رأيتها .. لا استطيع ان اصف جمالها !.. كانت تبتسم لي .. وظلت شفتاها منفرجتين عن اسنان كاللؤلؤ ..وكانت تلوح لي بيدها كأنما تشجعنى علي الاقتراب منها بل ضمها إلي أحضانى ..

لكننى ما كدت أتقدم نحوها حتي احتواها ضباب كثيف سمعت من ورائه صوتا انثويا يردد :

- لا تقترب أكثر .. توقف وأسمعنى .. انى منقذتك .. فهل تستطيع أن تأتى إلي .. ان تبدد الضباب الذي يحجبنى عنك .. وتأتى إلي ! .. انى منقذتك .. منقذتك أنا !

خفت الصوت تدريجيا .. ولم اعد أرى شيئا .. وصحوت مبهورا..ظل الحلم الغريب يخايلنى في يقظتى وفي مراقد نومى ..

ويتشبث بكياني حتي غدا جزءا من ذاتي !

ومن عجب انه كان يخيل إلي كثيرا أنني سألتقي بتلك المرأة ! منقذتي كما تقول ! .. وكنت اسعد بها كثيرا حين تتراءى لي !

وقام في نفسي ان أسعى حقا في البحث عنها ! .. لكن أين وكيف؟؟

كنت أحس في نفسي بدافع من وحي خفي اوقن معه أن تلك المرأة تعيش في مكان ما .. ربما بلد بعيد .. وربما في المدينة ذاتها التي أسكنها ..

حتي كان ذات ليلة فاذا بها أمامي !! .. اذا بها كانت قريبة مني .. أقرب مما توقعت !

كانت لحظة اضيئت فيها الأنوار في استراحة دار العرض .. التفت عندها إلي يميني عفوا فوقع نظري في نهاية الصف علي وجه رجل أعرفه وأتعامل معه منذ زمن بشراء الأقمشة من دكانه .. وإلي جواره تشبثت عيناي بوجه امرأة خيل إلي انني رأيت وجهها من قبل .. غمرني احساس غريب مبهج .. احساس من عثر علي شيء طال بحثه عنه .. ووجدتني دون وعي اهمس لنفسي :

- أين ومتى يا ترى التقيت بهذا الوجه ؟

رحت اعتصر ذهني بينما احملق في المشاهد التي بدأت تتتابع علي الشاشة دون أن أرى شيئا !

ثم ما لبثت ان انتفضت في مكاني واعماقي تصرخ :

- أنها هي .. هي « منقذتي » التي رأيتهاوسمعت صوتها في مراقد الأحلام !

تحركت واقفا .. وهرولت إلي المقصف لأرتمى علي مقعد .. ورحت أجفف العرق المتفصد علي جبهتى ..

بعدما هدأت قليلا بدأت اعقد مع نفسي مقارنة .. ها قد اصبحت امرأة الحلم حقيقة .. ها هي ذى أمامى .. فأين انا الآن منها تماما ؟...

لقد صحوت من حلمى بعد رؤيتى لزائرتى .. فظللت ساعات في روضة يملأ صدرى فيها شذى الزهور .. ويرف علي وجهى النسيم العذب.. والآن باغتتنى السنة كاللهب تلفح وجهى .. وتلتهم جسدى .. وتهاجم خياشيمى رائحة لحمى المحترق ! ..لماذا ؟ .. لأنى لم اجد «منقذتى » تنتظرنى كما توهمت ،،بل وجدتها تحت جناح رجل .. فماذا تكون مهمتى اذن وماذا أنا صانع ؟! وعلي ايه صورة سيكون التقائى بالمرأة التي عاشت زمنا في حياتى ؟!

علي اية صورة يتم هذا اللقاء ؟؟

هنا رأس المسألة ..

وكان لابد من وضع الخطة .. واعملت ذهنى ليلتها طويلا .. وانتهيت إلي فكرة ايقنت بعدم معقوليتها .. لكنها فكرة علي اية حال ! فماذا أملك غيرها ؟!

في الضحى كنت أضع قدمى علي عتبة دكان الرجل بائع الأقمشة .. زوج المرأة ..وفي أصبع يدي حلقة ذهبية .. دبلة ..

رحت اقلب كعادتى في الأقمشة .. وتخيرت نوعا من قماش نسائى غالى الثمن طلبت من الرجل ان يقطع منه ثلاثة أمتار .. واشفعت طلبى بعبارة جرت علي لسانى كأنما بدرت منى عفوا ..

وكانت تحمل ما معناه انى سأصنع من قطعة القماش الغالية الثمن

ثوبا رائعا .. لعروسى الغائبة في سفر طويل .. لكى أفاجئها عند عودتها بهديتى !

رمقنى الرجل غير مصدق .. لمحت في نظراته سمعتى ذات الرائحة المعروفة بين تجار الحى ...

اسرعت .. طبقا للخطة الموضوعة .. أضع تحت عينى الرجل خاتم الخطبة في اصبعى .. وتمتمت بكلمات الحمد والثناء للهداية والتوبة .. وبداية صفحة نقية من حياتى ..!

هز الرجل رأسه في اقتناع .. ودعا لي بالاستقامة وصلاح الحال متمنيا أن تسير الأمور سيرا طيبا .. شكرته وأنا أردد عبارات الندم علي ما فات من العمر ، وأذكر له ان سعادتى المرجوة بدأت منذ توبتى وأن الدنيا بكل ما فيها وجدتها بين يدى عروسى .. ثم ملت عليه كمن تذكر شيئا فجأة وقلت له كلاما .. وحك الرجل ذقنه ونظر إليّ .. فأسرعت ارسم علي وجهى الطيبة والبراءة .. وملت عليه ثانية اضيف إلي ما قلت كلاما ازين به مطلبى ..

وقلت للرجل انه سوف يقدم لي معروفا لم انساه له ..وخرجت أحمل قطعة القماش لأنتظر « منقذتى » التي ستجئ في الغد .. لتعطينى قياسها المماثل تماما لقياس عروسى المزعومة .. لأصنعه وأقدمه للعروس مفاجأة عند عودتها !

ترددت عليّ في زيارات ثلاث ، كنت اغتنمها بالتعلل بالقياس ثم معاودة القياس ثم ضبط القياس !

حينما انتهت الزيارات ولم يعد لي حجة في التذرع بشئ يخص الثوب .. رجوتها ... مخفيا لهجة الإستعطاف ... ان تزورنى كلما

سنحت لها الفرصة .. زيارة أخت لأخيها لا أكثر !

في الزيارة الأولى اشحت عن امرأتين من « حريمى » لأقبل علي «منقذتى» بكليتى ..

في الثانية صحت في امرأة وضعت قدمها علي عتبة الدكان .. وبي احساس من لم يعد له جلد ولا رغبة في هوى دنس : « لا وقت عندى »

في الثالثة لم أطق أن أرى العفة والسقوط مجتمعين .. فنهرت ثلاث نساء جاءت « منقذتى » وهن يتضاحكن حولي في خلاعة ..

كل هذا حدث دون أن أحدد موقفى مع المرأة تماما .. كنت كالتائه في صحراء لا يدرى متى وكيف يهتدى فيها إلي طريقه ..

لم تكن « منقذتى » في نظرى امرأة بالمعنى الذي أفهمه كرجل .. أبدا..كان ثمة شئ يغلف احاسيس نحوها .. نظرت إليها كمنقذة تجسدت أمامى في يقظتى بعد أن لقيتها طويلا في احلامى !

وكنت احس أيضا أن ثمة آصرة من الصداقة بدأت بينى وبينها منذ التقينا في حلمى الأول !

وفوق هذا كله كانت عندى .. منذ ظهرت في حياتى .. كطوق النجاة للغريق .. لهذا .. ولابد انكم مدركون ما أعنى .. لم اشأ ان أحطم من ابتدعته أحب أحلامى .. وادمر وجود من كانت تخايلنى في منامى .. كمنقذة لنفسى من الدمار ..

والآن افتحوا آذانكم جيدا واعجبوا لما قالته المرأة .. عندما كاشفتها بحقيقة أمرى ..

قالت أنها رأتنى كثيرا عندما كنا صغيران في رفقة ابي الذي كان صديقا لأبيها .. كثير التردد عليه في بيتهم .. واننى سقطت ذات يوم

علي سلم البيت فالتوت قدمى وحملونى إلي فراشها الصغير .. ودلكت أمها قدمى بالزيت الطيب .. وكنت ضعيفا نحيلا فازرقت شفتاى لانزعاجى ...وارتعشت ودمعت عيناى من الألم .. « ومكثت في خيالى حتي كبرت وتزوجت .. وكنت أسمع بمغامراتك النسائية وغيرها .. فأجدنى .. مدفوعة بشعور خفى .. ادعو لك بالهداية .. واتمنى لو استطيع .. ولا أدرى كيف .. ان انقذك واحميك من نفسك .. واتخيلك زوجا لامرأة طيبة صالحة في بيت دافئ هانئ »

وربطنا .. أنا وهي .. بين شعورها ذاك ولقائى بها في أحلامى ! .. وأمتلأنا دهشة .. ولم نستطع لا أنا ولا هي ان نفسر هذه الظاهرة العجيبة !

وتقتضيى الأمانة في حكايتى الا أغفل شيئا حدث بعد انصرا ، المرأة يوم ذاك الحديث .. ذلك انى قضيت وقتا غير قصير مع دموعى .. دموع كهل في الأربعين ..

ولم تمض أيام حتي أسرعتْ بوحى من أعماقى فنزعت الستار الذي يخفى ورا ، الدنس .. وأقمت مكانه حائطا من البناء .. وعلقت علي باب دكانى في وضع بارز لافتة تشير إلي اعتزالى حياكة السيدات ..

وهكذا أعلنت توبتى..

بقيت في حكايتى بعض أشياء لعلكم تودون سماعها ..

هل اقول انى أحببتها ؟

نعم .. كل الحب ..

وكان الحب من جانبى وحدى .. تعففت .. حرصا علي مشاعرها .. أن ابوح به ..

أما هي فاكتفت بصداقتها لي فحسب .. وقدرت وفاءها لزوجها ..

(....)

صحوت ذات صباح ليملأ سمعى نبأ أليم : نهب اللصوص متجرالرجل زوج صديقتى .. وتركوه خاليا من كل شئ ..

يومها رأيت الرجل وسط رجال الشرطة في دكانه .. وفي سحنته أروع يأس شهدته ..

في المساء سرى نبأ محاولته الانتحار .. طعن نفسه بسكين .. ربما كنت الشخص الوحيد الذي هزه الحادث من أساسه .. ولم ابرح طوال الليل مكانى في المستشفى الذي حاولوا اسعاف الرجل فيه ..

وكنت قد رأيت « عنايات » بجوار الرجل .. وشهدتها وهي تنتزع نفسها من جانبه عند الفجر بعدما ألح عليها أهل زوجها أن تنصرف إلي بيتها لتلتمس شيئا من الراحة ..

ولمحت في عينها وهي تغادر العنبر نظرة آسية ارتعش لها قلبى .. تراءت لي الفرصة سانحة لانهاء محنتين .. محنة عشتها منذ برزت عنايات في طريق حياتى .. والأخرى يعيشها الرجل وزوجته بعد أن فقد مصدر رزقه ..

في الحال لعبت دورى يوم ان عاد الرجل إلي بيته .. وضعت امامه خمسمائة جنيه كانت كل ما أملك .. وأشرت عليه ان يزيدها ببيع مصوغات زوجته .. اجل لقد نسيت أن اذكر لكم أنى ما زلت بالرجل اغريه حتي اقنعته بفكرة الهجرة للسودان .. وزودته بخطاب لصديق مصرى في وادى حلفا كانت زوجته احدى زبائنى حين كان موظفا صغيرا بمصر ، قبل أن يسافر إلي السودان ليحقق نجاحا في التجارة هناك ..

واكدت للرجل انه سيلقى المساعدة الأكيدة من ذلك الصديق ..

وودعت الأثنين يوم السفر ..

أما وداع الرجل فلا حاجة لي أن اذكره .. أما وداع المرأةفاعفونى من وصفه ..!

مازال قلبى يذرع أرض الحب الذي لم اعلنه يوما ..

وحصادى انباء طيبة عنها .. من هناك .. وحياة تعيشها .. وجهها صافى دائم الإبتسام ..

ضوء الحياة

« كتبت عام ١٩٥٧ ولم تنشر »

تعثرت الأنفاس في صدرى .. وأحسست وخزا في قلبى كوخز النصال كان يلفنى ويشيع في نفسي ضباب قاتم كثيف .. يبدد معالم نهار بهيج لم اغادره إلا منذ ساعات ..

مرة آخرى مددت عنقى من فتحة السرادق المتلألئ بالأضواء ، لأتطلع إلي العروسين وبى رعدة من يشهد جريمة تقع تحت عينيه !

تفزز الغضب في أعماقى فأحسست بعظامى كأنها تتفتت ..

وسعنى بعد قليل أن أفسح بين انفعالاتى مجالا لأتساءل في ألم :

« اين خليل الآن ؟ .. وإلي اين ذهب ؟ .. وماذا حدث له ؟ .. ماذا فعل بنفسه حينما عرف أنها هنا .. عروس مجلوة في ثوب العرس الأبيض تعلو رأسها الطرحة الناصعة البياض .. »

تقبضت أصابع يدي بشدة .. وتحفزت بكل بدنى .. كما لو كنت سأهم بالوثوب من فتحة السرادق .. لأطبق على عنق هذا العريس .. الذي جاء بغير عناء ليختطف الفتاة التي كانت حبيبة لغيره .. تعايش أحلامه ..وترشف من عصير قلبه السنين الطوال ..

كان الخبر قد تناهى إلي سمعى مصادفة مغرب اليوم .. فسعيت إلى خليل في دكانه لأجده مغلقا .. ولأستمع والغيظ يأكلنى إلي تعليقات الجيران هناك .. وعجبهم وتساؤلهم كيف يتم الأمر هكذا بمثل هذا الكتمان .. والسرعة الفائقة .. لتصير « بركسان » في يوم وليلة زوجة لغير خليل .. وهو الذي لم يمض علي لقائه الأخير بها غير ليلتين !؟

في طريقى إلي حفل الزفاف الذي أقاموا له سرادقا في الفضاء المجاور لبيت العروس .. تصدح فيه الموسيقى وتلعلع أصوات العوالم

بالرقص والغناء .. خايلني وجه خليل البدال الذي اجتاز بدكانه في حينا أعواما عشرة .يطالع الكبار في رواحه ومجيئه بوجهه الضاحك الطروب.. وتلفظ باسمه أفواه الصغار أول ما تعرف الكلمة تطلب الحلوى من دكانه..

خيل إلي في وقفتي أن أسمع بجواري صوت خليل يحدثني كما يحدثني دوما .. حينما أضيق بمشهده في دكانه .. ممسكاً بكتاب يلتهم صفحاته ..

أقول له متعجبا :

- يا أخي تمنيت ان أمر عليك ساعة .. فلا أجد في يدك كتابا .. أي انسان أنت ! .. سوسة الكتب التي يقولون عنها ! .. أنا لا أعرف هل تفتح دكانك للبيع والشراء .. أم لتقرأ فيه الكتب ليلا ونهارا !

يطلق ضحكة صافية يتبعها بقوله :

- هل تريدني أن أموت !

- تموت ! .. لا أفهم ..

- كيف لا تريدني أن أموت !.. هل يقدر الانسان أن يعيش بحق .. من غير ان يقرأ ليفكر ويتأمل !

- اذن فأنا لست حيا !

تفترش وجهه ابتسامة كبيرة .. يمضي قائلا وهو يسدد إلي نظرة عميقة :

- اتعرف لماذا لا تحب ان تقرأ ؟ .. لأنك تخاف أن تفكر وتكتشف نفسك !

دون أن ينتظر مني تعليقا يسارع قائلا :

- كيف ترضى لنفسك أن تكون موجودا علي ظهر الأرض من غير أن

تفكر ؟ .. الفئران التي تسكن دكانى إذا أحبت أن تأكل البندق .. تفكر كيف تدخل الدرج .. وماذا تعمل لتخرم البندقة .. وتحصل بسهولة علي قلبها !

هكذا كان خليل .. يقرأ ويفكر ويتأمل .. وإذا دعت الحاجة تفلسف .. وهو الذي لا تخلو يده من مجرفة الدقيق وسكين الجبن وصنج الميزان .. وتتقاسم نظراته علب السردين وبرطمانات الزيتون المملح وقطع الصابون .. وعشرات الأصناف علي الأرفف ..

لا يدرى أحد من أبناء حى ميت حدر في مدينتنا المنصورة من أين جاء خليل وحيدا .. تحمل ملامحه آثار صراع مرير لصباه الشريد ..وسط الشارع الرئيسى للحى قام دكانه .. وخلفه في الزقاق استقر متاعه القليل في حجرة تنبث في أركانها كتبه الأثيرة ..

اجفلت في سرحتى ليد تلمس كتفى .. وسمعت علي الأثر صوتا يقول :

ـ ما الذي أوقفك هكذا !!

استدرت في سرعة ..وكادت رأسى تدور عجبا ودهشة .. أهو حقا الذي يقف أمامى ؟ أهذا صوته الذي أسمع ؟! أهذه بسمته الرقيقة المتأنية ؟

ـ اتعرف أنك في هذا البالطو الذي ترفع ياقته .. مثل عبد الوهاب ساعة أن وقف يبكى في فرح حبيبته ويقول « ضحيت غرامى عشان هناكى !.. »

كتمت مشاعرى لأمسك بذراعه في صمت .. خرجت به من المكان الصاخب أريد أن ابتعد به عنه !.. ورميته بسؤال تدافعت كلماته في حلقى .. قلقة واجفة مشفقة :

ـ لماذا جئت هنا ؟!

ـ ولماذا لا أجئ ؟!

حملقت في وجهه في حيرة .. أشاح دون أن أتبين جيدا ماذا في ملامحه ..

ـ أتعرف أنها علي حق !.. لو أنها دخلت بيتى أنا .. لكانت الآن قاعدة تشم في يدي رائحة الجاز .. وتبص على البالطو الأصفر المبقع بالزيت والسمن .. من منا اذن أفضل لها ! .. البقال المقطوع من شجرة .. أم موظف البنك وحيد أمه وأبيه !

انطلقت أقول بصوت احسسته ينحدر إلي قدمى :

ـ لكن هذه ليست افكارك يا خليل .. وهذه المقارنة غريبة علي نظرياتك التي أعرفها !

فتح فمه ليتكلم وعاد فأغلقه متقلص الملامح كأنما يبتلع شيئا مرا ..ابتسم فجأة .. وقال شارد الفكر :

ـ ما هي القوة وما هو السحر اللذان خلقا في المرأة .. لتهزم بهما ما تريد أن تهزمه في الرجل ؟!

تنهد وقال بنبرة خفيضة :

ـ ايمكن أن نجلس هنا قليلا !

كنا أمام مقهى أقفر من الزبائن .. أطعته وأنا أتطلع إليه في صمت .. تهوم علي شفتى كلمات حيرى .. لا أدرى كيف أربط بعضها ببعض .. وبأى منها أبدأ .. بينما قفز إلي ذهنى ما حدث أول أمس حين دخلت علي خليل في دكانه .. فرأيت في يده كتابا تبينت أثره في ملامحه .. عندها سألته ماذا يقرأ ؟

جاءنى صوته عميقا معبرا يختلج بالانفعال :

ـ مأساة أوديب ..

ولم اكن اعرف عن أوديب هذا شيئا .. فأخذ خليل يحكى لي قصة ذلك الرجل التعس .. ولم أملك الا أن أرتعد ..

لم أعجب لما غشى خليل ذو الحسى المرهف من وجوم لازمه طوال ذاك النهار ..

عدت من جديد أرمق خليل في حيرة ولهفة وترقب .. بينما طافت بشفتيه ابتسامة حالت انفعالاتى دون فهم ما وراءها ..

نظر في عينى لمحة .. حول عينيه قائلا :

ـ أنت الان تقول في نفسك ما هي حقيقة شعوره .. ما الذي يحس به بالضبط .. يا ترى هل يتظاهر بالثبات والاحتمال ؟!

ارتجف صوته برغمه .. حولت عيناى بينما توقف فلم يكمل ..

بعد هنيهة عاد صوته يقع في اذنى مليئا بالانفعالات :

ـ أنت أول من يعرف ما كان بينى وبين بركسان !.. احساس غالى كبير ونبيل .. ساكن في الدم .. يدور معه في كل عضو من الجسد .. كانت هى التي أقف بها على رجلى .. واتحرك وأمش وآأكل وأشرب .. وأفكر .. وأرنو بعينى للحياة وللناس ..اعنى حياة تعيش داخل حياة!.. نفس تلبس نفسا .. جسدان يكسوهما جلد واحد ..

حدقت في وجهه دون وعى ..

لست أدرى تماما ماذا كان لحظتها يغلف ملامحه وقسماته .. كان شيئا كالحزن العظيم المستسلم .. المختلط بالدهشة والألم .. واليأس والأسى .. دق رأسى سؤال مرهق : ايمكن أن يظل على مقاومته طويلا ؟ أم تراه بعد قليل سيخر متداعيا ؟

ـ بعدها جاء انسان آخر .. الذي تجلس بجانبه الآن على المنصة .. أخذها إلي بيته ببساطة .. وأنظر لنفسى عند ذلك فأجد «أنا» التي

كانت تقف ثابتة مشدودة قد انقسمت نصفين .. شجرة ملأى بماء الحياة كانت جذورها ممتدة في بطن الأرض .. انقطعت الجذور .. ومصيرها بان..

لم أعلق بشيء .. فما كنت لأجد ما أقوله وأنا أشهده يتكلم مغالبا نفسه .. بينما يتحسس الجرح الغائر في قلبه الطعين !

(....)

لم ادر في الصباح علي أي وحه قضى خليل ليلته .. بعدما رافقته حتى بيته صامتا .. لا أكاد في دوامتي أسمع دقات أقدامنا في الليل الساكن علي أرض الطريق الخالي ..

(....)

عندما قالوا لي أنهم احتملوه إلي المستشفى بعينين مصابتين .. ركضت إلي هناك يهبط قلبي في احشائي ..

تساقطت مرتين علي سلم المستشفى قبل أن أتوسل ملحا إلي الطبيب ليأذن لي برؤية صديقي ..

ولم يسمح لي أن أراه الا بعد أيام انهكني فيها الانتظار وامضني الألم والقلق والعذاب ..

حينما دخلت عليه في سريره الأبيض ريع قلبي لمرأى الضمادة البيضاء التي تعصب عينيه ..

استقرت نظراتي علي جبينه المصفر ووجنيته الشاحبتين ..

هتفت باسمه في صوت مرتجف فتقلب في سريره .. وانبعثت من صدره أنه مكتومة ..

خرجت همستي كالأنة وأنا سأله ماذا به ؟ .. ارتفعت يده عن صدره.. يمدها نحوي تائهة مرتعشة .. كما لو كانت تشهق بالبكاء !..

اختلجت شفتاه مغمغما :

ـ من قال لك ؟

تناولت يده في يدى ..

سألت وقلبى ينعصر :

ـ ما الذي حدث ؟

أحسسته يحتبس آهة ألم لم يستطع معها أن يبقى يده في يدي .. فسحبها ليضغط علي الضمادة شاكيا متوجعا ..

بينما أتأمل وجهه المرتعد أخذ يردد :

ـ لا أعرف لماذا فعلت ذلك !

أسرعت أهدئه مواسيا بنبرات ترتجف بالتأثر .. لكن صوته الواهن راح يتدفق من فمه الذي أخذ يطبقه بين لحظة وأخرى ليكتم شيئا كالآهة:

ـ رأيتها طالعة قدامى علي السلم .. طالعة إلي حجرتى !

كدت اهتف لدهشتى متسائلا من هي ؟! .. بينما سمعته يردد :

ـ كأنما جاءت تزورنى .. تزور خليل الذي لا أحد له في الدنيا غيرها.. جاءت لترى وحدتى .. خرجت أناديها وقلبى يسبقنى ليلحق بها .. انزعجت في الظلام لصرختى .. تعثرت في درجات السلم .. وقعت وهي تقول آه يا خليل .. القيت بنفسى عليها ..

غص بريقه وهو يتابع :

ـ لم الق غير حجر الدرج الذي احتضنته وبسته .. بعدها وجدتنى اهبط السلم وأجرى .. أجرى ..

لهثت انفاسه كأنما لا يزال يجرى .. راح يبتلع ريقه في صعوبة ..

ـ لم اكن اعرف هل أنا أجرى علي أرض .. مستوية في الطريق ..أم فوق حفر تشتعل فيها النار !.. إلي أين أجرى ؟ .. أي مكان وصلت؟.. نظرت قدامى فلم أر غير توابيت تتطوح .. كأن أمواتها صحوا داخلها .. وقاموا يجرون في الطريق مثلما أجرى .. توابيت ولا شيء غيرها شفته قدامى في كل مكان ..

في اعياء وجهد حرك رأسه يمنة ويسرة :

ـ عيناى التي ما كانت تحب أن تنظر الا للحياة .. والجمال والأمل

في وجوه الناس .. لم تعد ترى أمامها إلا الخراب والموت ..
سكت لحظة تقلصت أثنا ءها مـلامحـه .. وتقبـضت أصـابعـه علي قميصه في تشنج ..
ـ ساعتـها تمنيت لو كان صاحب هاتين العينين لم يولد بهما .. ولا رأى نور الدنيا .. وجدت نفسى عند بيتها الجديد .. بيت زوجها الذي ذهبت إليه .. وقفت لحظة .. كان البيت مظلما .. وهى بداخله في حجرة من حجراته ... هي الآن مع الرجل الذي اختارته بدلا منى .. هاجمتنى أفكار كثيرة .. احسست بشعور غريب .. آمنت بأن كل الخير الذي في شخص انسان .. يمكن أن يضيعه في لحظة واحدة غدر انسانه يحبها ..
ارتعد في رقدته :
ـ لقيتنى ادخل اللحظة التي يدخلها كثير من الناس .. فيهم من يقدر علي الخروج منها .. وفيهم من لا يقدر ..
توقف وترددت انفاسه حادة ثقيلة .. تفصد جبينه بالعرق ..
ـ اللحظة الواحدة التي ربما تبتـدئ منها حياة تبنى من جديد .. أو تنهدم .. تستمر أو تنتهى .. اللحظة الحاشدة بكل شيء في الوجود .. وقالوا عنها كلمة واحدة : اليأس ..
ثم بصوت يتفجر بصرخة العذاب والألم همهم :
ـ ووجدتنى من غير وعى .. من غير ان احس ما الذي أفعله .. أمد يدى الاثنتين .. أمدهما إلى ..
أسرعت أطبق علي يديه اللتان غرس أصابعهما بلا وعى في الضمادة البيضاء .. هتفت بصوت كصوت الذبيح :
ـ اسكت ! لا تكمل !
لم اتمالك فهويت بصدرى علي صدره .. ينفث قلبى دموعا من دم ! عندما غادرت المستشفى .. كان بصدرى احساس من يغادر مقبرة يرقد في بطنها عزيز أطبق عليه تابوت مظلم ..

بيت أبي

(كتبت عام ١٩٥٧ ولم تنشر)

سمعت الكلمات تجرى علي شفتي أبي في ألم وأسى .. حين قال أن أمي لا تطيب لها الحياة معه لفقره ..

ظللت افكر في الكلمة التي انطبع أثرها في وعيى لأول وهلة دون أن أفهم معناها .. لكنى أدركت باحساسى أنها شيء لا يمكن أن يعيب أبي الذي لا يجد من يطهو الطعام ويغسل له الثياب ..

لحظتـهـا كنت أجلس علي ركبـتى أبي .. ويدي في يده يهـزها في عطف والحنان ملء عينيه وهو يقول :

ـ هيه .. الا يعجبك هذا البيت ؟

قلت في همس :

ـ لكني سأبقي فيه وحدى يا أبي .. عندما تخرج وتتركنى ..

وقف أبي يقول كأنه يتضرع :

ـ ومم تخـافين ..؟ أنت ولدت في هذا البـيت .. ولن أدعك وحـدك كثيرا ..

أطرقت .. ولعله رأى الاصرار في قسماتى .. فراح يذرع الحجرة في سكون .. ثم اشعل سيجارته .. ورأيت نظراته الحائرة لا تستقر وقتها.. رحت أفكر في ذلك النقاش الحاد الذي دار منذ ساعات بين أمى وأبي .. حين جاء لزيارتنا بعد زمن لم أره أثناءه .. كان كلاهما غاضبا محتدا .. يكيل للأخر التهـمة تلو لأخرى .. باذلا اقصى جهده ليلقى التبعة علي رفيقه فيما حدث ..

كانت أمي تصيح : « أنت الذي .... » فيجيبها أبي في ثورة أشد من ثورتها : « بل أنت التي .....! »

تلتقط اذنى كلمات لا أفهمها .. المحكمة .. القاضى .. خمسة جنيهات في الشهر ..

أما ذلك الذي حدث فلم اكن اعرفه ..

كثيرا ما كنت أسأل أمى عن أبي .. فكان جوابها لا يتغير .

« انه لا يريدنا » .. اسكت ولا الح في السؤال ..

اليوم رأيت أبي عندنا .. تأملت وجهه الحليق الأبيض .. وعيناه العسليتين .. وسيحارته التي يعلقها بين اصبعيه طويلا قبل اشعالها وأحسست أنى أحبه .. وسأحبه أكثر .. لو انه ابتسم !

وددت لو انه طرح نقاشه مع أمى .. وتخلى عن غضبه ليتحول إليّ وعلي شفتيه ابتسامة !

وانتظرت ساعتها في ركنى الذي اخترته في حجرة مجاورة .. والباب بيني وبين أبي نصف مفتوح .. ورأيت أمى تمد يدها لتتناول منه نقودا دستها في صدرها .. ثم استدار أبي ليخرج .. فنهضت اواجهه بجسمى الضئيل .. ليمنحنى ابتسامته .. التي انتظرها ..

نظر إليّ وفي عينيه حزن .. وحنان وحب .. تقدم إلي ورفعنى بين ذراعيه وضمنى إلي صدره .. وسمعت قلبه يدق .. ورأيت وجهه يتلون بانفعالات لا أعرفها .. وعيناه تضيقان قليلا .. ليحبس في داخلها شيئا ..

قلت له :

- أبي .. لماذا لا تبتسم ..!

في التو رأيت أساريره ترتعش بشيء يشبه الابتسامة :

- أنت كبرت كثيرا .. أتجيئين معى اذن ..؟

ابتسمت شفتاه هذه المرة .. فأحسست بسعادة كبيرة تدلف إلى قلبى

.. وكدت لفرحتى أوافق علي الذهاب معه دون تردد ! .. لكن نظرة أمى جعلتنى اخفض رأسى صامتة ..

عاد أبي يقول في صوت عميق متجاهلا أمى :

- ستذهبين معى في المرة القادمة .. اليس كذلك ؟ .. إن أباك يعيش وحيدا ..

تطلعت إلى وجهه .. بعينين غير مصدقتين :

- لكنك تزوجت يا أبي .. ؟

تجهم وجهه .. ،استدار يواجه أمى بنظرة حادة .. صاح فيها :

- أنت قلت لها ذلك ! .. لماذا تكذبين علي البنت .. لماذا .. ولماذا لم تقولى لها الحقيقة ..! لماذا لم تقولى لها أنك تركتينى لأنك جشعة فارغة العين ..! .. تدوسين الطيب من أجل بضعة قروش ..!

- كفاك صياحا أمام البنية ..!

رنت ضحكة عالية أطلقها أبي .. ورددتها جنبات الحجرة :

- أتعرفين هذا .. اتحسنين تربيتها بالكذب ..!

.. استطرد في ألم :

- لست أجد داعيا لهذه الكراهية التي تحشوين بها قلب البنت ، نحو أبيها لكن ..

استدار إلىّ وفي عينيه عزم :

- هيا .. ستأتين معى في الحال !

نظرت إلىّ أمى .. ورأيت لمحة من الخوف تطل في عينيها ..

حينما احتوانى الطريق مع أبي .. رأيت في وضوح ما يرتسم على وجهه من مختلف الانفعالات .. وبين الفينة والأخرى .. كان يجيش في

صدره شيد ما فيضغط علي يدي بقوة !
لكننا لم نتبادل كلمة واحدة ..!
سألته عند ما دخلت البيت الذي خرجت منه مع أمى منذ سنوات :
ـ أبي .. هل سأعيش معك وحدى ؟!
نظر في عينى بعمق وقال :
ـ هل يضايقك هذا ؟
لم أجب بشيء ..!
وقف أبي اخيرا أمامى ليقول :
ـ تريدين أن تجيء أمك أو تعودين ..! والأول لا يمكنني تحقيقه .. ربما امكن ذلك يوما من أجلك أنت .. أما الثانى فانني أود أن أسألك أيهما تفضلين .. تجيئين بيت أبيك ذات يوم لتجدى فيه امرأة غريبة .. أم تقمين في هذا البيت لتحفظى مكانا لأمك .. عندما تعود ..؟
اخفضت رأسى .. ثم رفعتها لأتطلع إلى وجه أبي ..
كان الجواب في صدرى .. لكنى لم أنطق به .. ربما لأنه أكبر من صغيرة مثلى ..
لماذا لا أقيم مع أبي الطيب .. الذي من أجلى أنا سيأتى بأمى ذات يوم إلي بيته .. بيتنا ..
لماذا لا أملأ وحدته .. لأعوضه بعض الذي كان ينتظره من أمى ..؟؟

للكاتب :

أيام من العمر	رواية	دار الفكر الحديث
الحياة امرأة	قصص	دار الفكر الحديث
الأيام الضائعة	قصص	طبعتان) دار الفكر الحديث
اروح وأجساد	قصص	دار الفكر الحديث
حب وحصاد	قصص	دار الفكر الحديث
الإصبع والزناد	قصص	المؤسسة العامة للتأليف والنشر
دماء في الوادى الأخضر	رواية تاريخية	دار الفكر الحديث
الأجنحة السوداء	رواية (طبعتان)	دار الفكر الحديث
الأعمى والذئب	قصص(طبعتان)	لجنة النشر للجامعيين
الحب في أرض الشوك	رواية	سلسلة كتاب اليوم
العشق في وجه الموت	قصص	دار المأمون
حصاة في نهر	قصص	الهيئة العامة للكتاب
البحيرة الوردية	قصص	دار المعارف
نزيف الشمس	قصص	دار المأمون
لعبة الثعالب	مسرحية	الهيئة العامة للكتاب
سقوط لحظة من الزمان	قصص	الهيئة العامة للكتاب
الرقص علي الحبال	مسرحية	الناشر العربى
هزيمة ملك	رواية تاريخية	الهيئة العامة للكتاب

حكايات الحى القبلى مسرحية دار الإشعاع
الخندق الكل عريان مسرحيتان دار الإشعاع
زائرة الليل قصص دار الإشعاع
احضنوا الشمس - المولود مسرحيتان إتحاد الكتاب.

من أوراق العمر لمحات من السيرة الذاتية نادى القصة
حديقة الحب ٣ مسرحيات دار الإشعاع
عصف الرياح قصص دار النيل
الهشيم رواية دار النيل
الجراد والزقاق رواية دار النيل
شيء لا أملكه قصص دار النيل
الدائرة السوداء قصص دار النيل

قيد النشر:

الفوانيس مسرحية
الفأس والبشر ملحمة روائية في خمسة أجزاء
مشاهد من صفحات قديمة قصص

فهرس المحتويات

الناشر

دار النيل

للنشر والطبع والتوزيع
١٢ شارع عبده بدران
م الباشا - المنيل
ت : ٣٦٢٢٥٧٨

رقم الإيداع بدار الكتب

٢١٣٩٤ / ٢٠٠٦

الترقيم الدولى

977 - 5414 - 71 - 7

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف